6 me Année, No . 241 

Lundi - 14 - 2 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٤١ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ١٤ فبراير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

فى القرية

من أحاديث العيـــد

أصبحت القرية الصغيرة غارقة فى ضباب أمشير البارد الأهوج كأنها قِطَع السحاب المركوم جثمت من ثقلها على الأرض . فالجو على قول «هوجو» كستار الغيب المسدول ، والنسيم على قول « ابن المعتز » كذيل الغلالة المبلول ، ووجه السماء كوجه الصحراء فى يوم الدجن لا ترى فيه إلا تلولاً من الغمام الجون وسهولاً من السحاب الهِفّ[1] . وكانت جدران المسجد تعج بالتكبير والتهليل ، وأفنية الدور تنعم بالعناق والتقبيل ، والطرقات من البيوت إلى الزاوية ، ومن الزاوية إلى المقبرة ، تزدان بالشباب القروى القوى العامل ، وهو يطفر من مرح الصبى ؛ ويخطر فى زينة العيد ، فيكسب الطبيعة العابسة المقرورة بشراً من طلاقة وجهه ، وقبساً من حرارة قلبه

أخذت « المناظر » والمصاطب زخرفها بالقوم بعد أن أقاموا الصلاة لله ، وأدّوا الزيارة للموتى ، وقدموا التهنئة للأهل ، واقتضوا ثقالاً عن سماط العيد ، ودارت عليهم أكواب القرفة وسكائر

(١) الغمام الجون : الأسود ، والسحاب الهف : الرقيق الأبيض

الطِّباق ، وتشققت بينهم مقطَّعات الحديث ، فترامت إلى عيد الملك بحج البيت ، وعيد الأمة بمولد الفاروق ، وعيد الأسرة بيوم الأضحى . وكان اجتماع هذه الأعياد السنوية الثلاثة في يوم العيد الأسبوعي من مصادفات الدهر النادرة ، وموافقات القدَر البعيدة ، فتألقت في وجوههم أضواء مختلفة من السرور ، وتدفقت فى قلوبهم أحاسيس شتى من اللذة ؛ منها المنبثق عن مشرق الإيمان بالله ، ومنها الصادر عن منبع الإخلاص للمليك ، ومنها المنبعث عن فيض النفس الراضية تفتحت فى حرارة الحب كما تتفتح الأكمام فى دفء الربيع

* * *

من الصعب أن تقيد الأحاديث المرسلة إذا جرت بين قوم لا يؤمنون بقواعد الجدل ، ولا يحفلون بأمانة التاريخ ، ولا يرون الحق للمتكلم أن يتم كلامه أو يشرح رأيه . وحديث الناس فى القرية كشقشقة العصافير فى الشجرة ، تسمع كل عصفور يغرد ، ولا ترى عصفوراً واحداً يسمع !

— كل عام وأنتم بخير . واللقاء فى العام المقبل إن شاء الله على عرفات !

بهذه التحية وهذه الأمنية ابتدأ الحديث ؛ وكأنما كان لفظ عرفات سبباً من الجذب الروحى حوّل عواطف القوم وأمانيهم إلى مكة ! فالذين حجوا أخذوا يذكرون وهم فى غمرة الشوق ونشوة الذكرى ، تجلى الألوهية فى مهابط الوحى ، وإشراق النبوة فى مطالع الرسالة ، ويروون عن كل منسك حديثاً ، ويقصون عن كل موقف حادثة . والذين لم يحجوا يصغون إلى صرف الحديث وهم من فعله الساحر فى هيام غالب وطرب نزوع . ثم رجع الحديث مشرقَ الحواشى معطر الأطراف من الكعبة إلى عابدين ، فأفاضوا فى صلاح الملك الشاب وبره ، إفاضة الخيال الشاعر فى عدل عمر وفضل الرشيد . فهذا يقول إن جلالته يزور القرى متنكراً ليرى بنفسه منابت الشر ومواطن الفقر ، فإذا كتب الله النقمة لبيت من البيوت عطفه إليه فدخله دخول الرحمة ، وحل به حلول السعادة . ثم يروي الأعاجيب فى هذا الباب مما تناقلته الأفواه فى الأسواق وردَّدته الألسنة فى المجالس . وهذا يذكر أن الشيخ فلاناً رأى جلالته فى المنام والنبى يقبله قبلة الرضى ، ويقلده سيف الخلافة ، ويَعِده نصر الله مادام على النهج الواضح والعمل الصالح والوحدة الجامعة . وذلك يقرر أن غضب الملك الصالح من غضب الله ، إذا صُب على الباغي لا تعصمه منه قوة ، ولا تدفعه عنه كثرة . لأن غضبه فوق الهوى والطمع ، فلا يكون إلا للعدل فى جوهره ، وللشعب فى صميم حقه

ثم انتقل الحديث من غضب الملك إلى حل مجلس النواب ، فغاضت البشاشة من الوجوه وقالوا بلهجة الآسف الحزين :

عدنا إلى الحرب الضروس ، تفتك أسلحتها الأثيمة بالأموال والأنفس والأخلاق والقرابة . فالانتخاب بمآثمه ومغارمه هو المظهر الذى نحسه ونعرفه من مظاهر الدستور . وفترة الانتخاب هى الفرصة التى نرى فيها النائب طول الدورة البرلمانية . ومعركة الانتخاب بين الحكومة والأحزاب ، وبين المرشحين والطلاب ، هى التى تحمل أولياء الحكومة وأغنياء الأمة على أن يذكروا القرية ، ويزوروا الفلاح ، ويعطفوا على بؤس الأجير ، ويمسحوا على رأس العامل ، ويعدونا المواعيد ، ويمنونا المنى ، ويصوروا لنا البرلمان فى صورة المسيح المنتظر ؛ فلا ظلم وهو منعقد ، ولا بؤس وهو قائم ! فنقطع فى رضاهم القرابة ، وننقض فى سبيلهم الجوار ، ونتحمل فى نجاحهم العنت ؛ حتى إذا فاز النائب ، والتأم المجلس ، وحكم الدستور ، انصرف البرلمان إلى الأحزاب ، واشتغلت الحكومة بالموظفين ، واهتم النائب بنفسه ! أما القرية والفلاح ، وأما الدائرة والناخب ، فرآهم مقتحَم العين ، وشكواهم دبرَ الأذن

* * *

ذلك بعض حديث القوم . وهو على سذاجته أو قل على تفاهته أخف على القلب وأندى على الكبد من حديث يزوره كاتب يتعاطى الأدب ، أو خطيب يحترف السياسة .

أحمد حسن الزيات

من مآسي التاريخ الإسلامي

فرار عبد الرحمن الداخل

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس بين أمراء الدولة الأموية ، سواء في الشام أو الأندلس ، من تقدم إلينا حياته وسيرته تلك الصفحة المدهشة التي يقدمها إلينا عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ؛ فقد كان هذا الأمير بطل مأساة خارقة مؤثرة ؛ ولم تكن روعة هذه الصفحة في أنه أقام من العدم ملكاً عظيماً فقط ، وأقام لمجد أسرته الذاهب صرحاً شامخاً فحسب ، ولكن روعتها تبدو بنوع خاص في معترك المحن الأليمة التي نشأ في غمارها هذا الأمير القوي النابه . وإذا كانت حياته السياسية لا تحمل على كثير من الحب ، وتبدو لنا حياة مغامر يشق طريقه إلى السلطان بوسائل ليست دائماً مشروعة ، فإن المحنة التي طبعت بها حياته الخاصة ، وما صقلت هذه المحنة من خلاله الباهرة ، لما يستثير منا أيما عطف وإعجاب

وقد لا نجد لحياة الداخل صورة أبلغ وأقوى من تلك التي رسمها لنا خصمه وعدو أسرته أبو جعفر المنصور العباسي إذ نعته بصقر قريش ، ولخص لنا حياته المدهشة في قوله : « عبر القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذللا له صعبه ؛ وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ؛ وأمير المؤمنين بطيب عترته واجتماع شيعته ؛ وعبدالرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين »

تلك هي حياة عبدالرحمن بن معاوية ، حياة نشأت من العدم ، وسلسلة حافلة بالمحن والصعاب القادحة ، تبدأ في المشرق بفرار عبد الرحمن أمام مطارديه وقتلة أسرته ومنتصبي عرش آبائه وأجداده ، وتنتهي في المغرب وبسائط الأندلس بالظفر والملك الموطد . ولقد كان هذا الفرار أول وأعجب فصل في هذه المأساة ، وكان عنوان القدر المدهش يدبر من الحوادث الواقعة ما لا يخطر تصوره على الذهن المغرق في الخيال

كانت سنة ١٣٢ هـ سنة حاسمة في تاريخ الإسلام والخلافة ، ففيها انهار صرح الدولة الأموية تحت ضربات بني العباس ، وقامت في المشرق خلافة جديدة هي الخلافة العباسية ؛ ورأت العصبة العباسية الظافرة أن تتوج ظفرها بسحق الأسرة التي استولت على تراثها واجتثاث أصولها وفروعها ، فنظمت مطاردتها الشهيرة لبني أمية ، وتتبعتهم بالقتل الذريع في كل مكان ، وقتلت منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم تبق حتى على النساء والأطفال ؛ ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن يفلت بعض فروعها ، وأن يزكو ليستعيد أصله الراسخ في أرض أخرى ؛ فكان ممن نجا من الذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك ، اختاره القدر ليحمل مصاير الدولة الأموية إلى وجهة أخرى

هذا الفتى هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وإخوته في قرية تعرف بدير حنا من أعمال قنسرين ، وفيها كان مولده قبل ذلك بعشرين عاماً ؛ وكان أبوه معاوية قد توفي شاباً في أيام أبيه هشام ، فكفله وإخوته جدهم هشام ؛ ولما وقعت النكبة وأمعن الظافرون في مطاردة بني أمية فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات وحل هنالك ببعض القرى ، واختفى بها حيناً يدبر أمره ؛ وكان يرقب الموت في كل لحظة ، ولكنه كان في الوقت نفسه يتجه بذهنه إلى مستقبل بعيد غامض . وبينا هو في هذا الجزع القاتل يدبر أمره ، إذا بجند المسودة تطوق القرية ، وتستقصي آثار بني أمية ؛ وإذا بعبد الرحمن يرى شبح الموت أمامه فجأة ، فيحاول اجتنابه بالفرار من مطارديه

وقد انتهت إلينا عن هذا الفرار قصة مؤثرة نقلها إلينا مؤرخ أندلسي مجهول عن لسان عبد الرحمن ذاته [1] ، ونقلها

(١) وردت هذه الرواية في كتاب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » لمؤلف مجهول ص ٥١ — ٥٣

عنه بعد ذلك أبو حيان مؤرخ الأندلس[1] وخلاصتها أن عبد الرحمن حينما علم أن القرية قد غصت بجند المسودة ، بادر إلى شيء من المال لحمله ، وفر مع أخيه الأصغر ، وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ، وقصدا إلى شاطىء النهر (الفرات) فدل عليه بعض الخونة فما شعر إلا والخيل في أثره ، فألقى بنفسه في النهر مع أخيه وأخذا يقطعانه سباحة ، واستطاع عبد الرحمن أن يصل إلى الضفة الأخرى ؛ ولكن الغلام عجز عن قطعه ، وآثر أن يعود إلى الضفة الأولى بعد أن وعده الجند المطاردون بالأمان ؛ ولكنه ما كاد يقع في أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عيني أخيه وقلبه يتفطر روعة وأسى .

ولما أمن عبد الرحمن خطر مطارديه سار مختفياً إلى الجنوب وقطع فلسطين ثم مصر ، وهو يحمل حياته في كفه متأهباً للقاء الموت في كل لحظة . وكانت عيون العباسيين ترقبه وتشيعه خلال هذه الهضبات والفيافي الشاسعة ، وتكاد تكشفه من آونة إلى أخرى ؛ ولكن طالعه كان يهديه ، فجاز مصر إلى برقة ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى أخواله بني نفرة ، وهم بطن من بربر طرابلس وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم يرقب الفرص ، وأنفذت إليه أخته أم الاصبغ موليبه بدراً وسالماً ومعهما شيء من المال والجوهر . والظاهر أن عبد الرحمن كان يتجه منذ الساعة الأولى ببصره إلى افريقية ، وأن نفسه كانت تحدثه بما قد يكون له في الأندلس من شأن . فلما هدأ روعه استأنف سيره ، ونفذ إلى افريقية يحاول اختراقها ؛ وكان المتغلب عليها يومئذ عبد الرحمن ابن حبيب الفهري ، وكان وقت أن دالت دولة بني أمية في المشرق قد دعا لبني العباس ، وكان يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل بعضهم واعتقل البعض الآخر وصادر أموالهم . ولما شعر بظهور عبد الرحمن بن معاوية حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وأن ينجو مع صحبه إلى المغرب الأقصى

وهنا تتفتح آمال عبد الرحمن وأطماعه ؛ فعلى مقربة منه في الضفة الأخرى من البحر بلد غني زاهر من تراث الدولة الأموية الذاهبة لم تمتد إليه يد المسودة ، ولم تقتحمه دعوتهم ، وفيه عصبة قوية من بني أمية وأنصارهم ومواليهم ، وفيه يستطيع — إذا حالفه حسن الطالع — أن يعيد بناء الصرح الذي انهار في المشرق ، ويستأنف لأسرته حياة جديدة في السلطان والملك .

وكانت الأندلس في الواقع ، منذ انجلت عنها يد السلطة المركزية ، مهبط الطامعين والمتغلبين ، وكان يحكمها ويقودها يومئذ يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ؛ وكان قد وليها قبل ذلك بنحو عشرة أعوام باتفاق الجماعة عقب معارك داخلية طاحنة ، ولكن حكمه لم يتوج قط بالصبغة الشرعية ؛ ولم تستكن الأندلس نهائياً إلى حكمه بل كانت تتطلع دائماً إلى مصيرها وترجو أن تظفر بالاستقرار السياسي في ظل أميرها الشرعي . وهكذا فإن عبد الرحمن الأموي حينما سبر غور أحوال الجزيرة على يد بعض رسله وموالي أسرته ، آنس أملاً في العمل وفي النجاح ؛ ثم عبر إلى الجزيرة ، والتقى في أنصاره وعصبته بيوسف وقواته في « المسارة » على مقربة من قرطبة في أوائل ذي الحجة ١٣٧ هـ (٧٥٦ م) ؛ وكان النصر حليفه ، إذ هزم يوسف وحلفاؤه هزيمة شديدة ، ودخل عبد الرحمن قرطبة في يوم الأضحى ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً

* * *

على أن يوم المسارة كان بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته ؛ فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتتح عاصمتها وينتزع إمارتها لنفسه ؛ ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه ؛ وكان ثمة بينه وبين ملك الأندلس الحقيقي مراحل شاقة ؛ بيد أن هذا الفتى الذي شحذت المحنة والخطوب همه ، استقبل مهمته الفادحة بعزم مدهش ، وقضى بقية حكمه وحياته ثلاثة وثلاثين عاماً يغالب صعاباً لا نهاية لها . وكانت الأندلس خلال هذه الفترة كالبركان الثائر ، يضطرم كل يوم في ناحية ، فلا تكاد الثورة تخمد في ناحية منها حتى تضطرم في ناحية أخرى . وكان عبد الرحمن في خططه وأساليبه طوال هذه المعركة مثال الجرأة والصرامة والقسوة ، بيد أنها لم تكن شهوات طاغية ظامئ إلى الدم ، بل كانت أساليب عنف يمليها العنف والخطر الداهم . كان عبد الرحمن يعيش من يوم إلى يوم في غمر الخلاف والثورة والخيانة ، ولم يترك له الكفاح المضطرم المستمر فرصاً كثيرة لأعمال السلم ، بيد أنه خرج ظافراً من المعركة ، ظافراً

(١) أوردها المقري عن ابن حيان في نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣

بإعادة الصرح الأموى الذى تهدم فى المشرق ؛ وتوطيد دعائم الملك الذى غلب ، وإنشاء أسرة أموية جديدة فى الغرب ، قدر لها أن تسير بالأندلس فى سبيل العظمة والفخار أحقابا

بيد أن هذا الظفر الباهر كانت تنشاه دائماً آلام نفس معذبة ذلك أن المحنة طبعت نفس عبد الرحمن وروحه إلى الأبد بطابع الكآبة والشجن ؛ وهو لم ينس قط أنه سليل دوحة تقصفت واجتثت أصولها الراسخة حيث كانت يانعة زاهرة ، وأنها اجتثت فى مناظر دموية مروعة كان من شهودها وكاد يغدو فى ضحاياها ؛ ومن ثم نراه حتى آخر حياته محزون النفس يتلهف على ماضيه ، ويبكى مجد أسرته ، ويتحسر على فراق وطنه ، وعلى نفيه وغربته وقد انتهت إلينا من شعره أبيات مؤثرة تفصح عن آلامه المنوية مثل قوله فى التشوق إلى ربوع الشام :

أيها الركب الميم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضى

وقوله وقد رأى فى الرصافة (١) نخلة منفردة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى (٢)

تلك هى مأساة عبد الرحمن الداخل ؛ ونقول مأساة لأن الظفر الذى اختتمت به لم ينزع عن هذه الحياة الشاقة لونها المؤسى . وقد كان الداخل بلا ريب من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى ؛ بيد أنه فى حياته الخاصة يبدو لنا دائماً ذلك الطريد الذى تثير محنته وآلامه فى النفس شجنا ، قبل أن تثير أعماله الحافلة فى النفس إعجاباً

محمد عبد الله عنان

(١) رصافة قرطبة ، وقد أنشأها الداخل تشبها بجده هشام حيث أنشأ الرصافة بالشام

(٢) وفى نسبة هذه الأبيات إلى الداخل خلاف

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٠ —

أقف قليلاً حتى أستعد لتدوين ما سمعت من ظمياء . وأشهد أنى سمعت بقية حديثها وأنا كاره ، لأن اسم عبد الحسيب أصبح يزعجنى ، فهو الحبيب الأول ، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب الثانى . وحماسة ظمياء فى سرد القصة قد تنتهى بتذكير ليلى بماضيها فتنتكس وتضيع من يدى ، لا قدّر الله ولا سمح . وهل أملك زمامها إلا إن وصلتُ بها إلى ساحل العافية ؟ كتب الله لها السلامة ، وشفى من أجلها جميع المرضى من الملاح !

ومن واجبى نحو نفسى أن أنص بصراحة على أنى لست لئيما كل اللؤم فى هذه القضية — وما أبرّئ نفسى ، إن النفس لأمّارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى — فأنا أحب أن تُماثَل ليلى لأتفرد بهواها ، ولكنى مع ذلك أشعر فى بعض الأحيان أنى أخدمها بإخلاص ، فإنه يعزّ علىّ والله أن تُعطب سيدة لها مثل طرفها الساحر ، وصوتها الرخيم . يعزّ علىّ أن تعطب مثل تلك الإنسانة وإن خلت منها يدى ، وهذه فيما أظن أول مرة أشعر فيها بحلاوة الصدق ، فقد مضت أعوام وأنا لا أداوى امرأة جميلة إلا هممت بخطفها من زوجها . وقد وقعت لى من ذلك حوادث سيطول عليها ندمى ، حين أثوب إلى رُشدى ، أنا الطبيب الآثم الذى زعزع عروش السعادة فى كثير من البيوت

أنا أشعر حقاً وصدقاً أن ليلى تهمنى ؛ وأشعر حقاً وصدقاً أنى مستعد للتضحية بنصيبى من هواها ؛ ولكن ما الذى يمنع من الجمع بين المزيتين : عافيتها وسعادتى ؟ يمكن بسهولة أن تصير محبوبتى بلا بغى ولا عُدوان ، والخلاصة أنى أريد أن يُنسى اسم عبد الحسيب ، ولكن كيف ؟ إن قصته تهمنى جداً ، لأنها ستعلمنى كيف أسوس ليلى ، وهذا بيت القصيد ، فقد أصبح مفهوماً عندى أنه كان (عبيطا) لا يعرف ما يأتى وما يدع . وكان مصيره أن يُحرم عطف ليلى ، فيمرض هو فى مصر ، وتمرض هى فى العراق ، وما أحب أن أكون ثالث المرضى !

يضاف إلى هـذا أن ظمياء ستتكلم أيضاً عن درية أخت عبد الحسيب ؛ وهذا الاسم بهيى جداً ، ولا أعرف السبب فى ذلك ، ولعلى أعرف بعد حين ، فقد تتذكر الإنسانة التى تحمل هذا الاسم الجميل أن الفتى الذى كان يصارحها وتكاتمه لم ينس أن جسمها كان أخصب جسم تبختر واختال فى شارع فؤاد . ولعلها تمرض هى أيضاً فيُدعى لهـا الطبيب الذى يداوى ليلى المريضة فى العراق

درية ، متى تمرضين ؟ إخص عليك ! بل متى تتصنعين المرض لأراك — فى غير ريبة — ممدَّدة على السرير ؟ متى ؟ متى ؟ إن بلائى سيطول !

***

أنا أغار من اسم عبد الحسيب ، فليؤجَّل حديثه لحظات ، ولأدوِّن بعض الوقائع المتصلة بهذه الأحاديث

١ — بجوار دار المعلمين العالية رجل يجلس على الأرض و (يضرب الرمل) وهو معروف لسائر أهل بغداد ، وهو يذكرنى بأمثاله من الذين كنت أستخبرهم مصيرى فى الحب حين كنت أمشى بشارع الخليج . وما كنت أول محب استخبر الرمل ، فزميلى البهاء زهير تنطق أشعاره بأنه كان يعرف جميع من (يضربون الرمل) بالقاهرة

أقول إنى أقف دقائق كل صباح حول بساط هذا الرجل وأنا فى طريقى إلى الدرس ، والطلبة يمرون فلا ينتقدون أستاذهم ، لأنهم سمعوا أنه أديب فيلسوف لا يهمه غير الوقوف على أحوال المجتمع . ولكن الواقع غير ذلك ، الواقع أنى بدأت أتخوف مصيرى فى هوى ليلى ، وأصبحت كالطفل أصدّق كل شىء . ولكن كيف أستخبر الرمل والطلبة يغدون ويروحون وأكثرهم يحمل المصورات الشمسية ، وفى مقدورهم أن يأخذوا صورتى على تلك الحال ويقدموها إلى الجرائد فأصبح محور السمر الساخر فى الأندية والمعاهد ؟

الحل سهل : أنتظر ذهاب الطلبة للغداء ثم أعرج على ضارب الرمل لأشوف بختى

كذلك فعلت

وبلاه ! ماذا تصنع المقادير ؟

أنا أجلس أمام أحد الدراويش فى بغداد لأشوف بختى ، وأنا الذى غلبت الساحر الهندى على شاطىء الاسكندرية فى صيف سنة ١٩٣٤ ؟

ليت أيامى تعود !

فما زلت أذكر كيف أعطانى ذلك الساحر الهندى عشرين ديناراً فى سبيل أن أترك له التفرد بقراءة الكف لمن يحج ذلك الشاطىء من الظبيات

وخلاصة القصة أنى ذهبت فى ضحى يوم صائف إلى خليج ستانلى ، ونزلت بثوب البحر إلى ملعب الغزلان ، فرأيت فقيراً هندياً يقرأ الكف لفتاة ناهـد تشبه أفروديت ، أو تشبهها أفروديت ، فجلست بجانبهما جلسة الباحث المتعقب ، لا جلسة اللاهى اللاعب ، وما هى إلا لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول : على رسلك أيها الساحر ، فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف ، وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى . أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش المجهول !

فانزعج الرجل انزعاجاً شديداً ، وفقراء الهنود ضعاف العزائم والقلوب فى أكثر الأحيان

ونظرت الفتاة فى استغراب وقالت : وحضرتك تعرف علم الكف ؟

فقلت ، وأقسم ما قلت غير الصدق : نعم أعرف علم الكف وهو خير ما تعلمت فى باريس !

فانعطفت الفتاة فى تخاذل وقالت : تسمح تقرأ لى كفى !

فأخذت يدها ونظرت إلى صدرها مرة وعينيها مرتين ، ثم شرعت أقص عليها أخبار المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين

وما هى إلا دقائق حتى كنت ساحر الشاطىء

فهل تعود أيامى ؟ هل تعود ؟ أسرى إلى الهوى !

وتخاذل الساحر الهندى وتضعضع وأقبـل يسر فى أذنى : تتفضل بكلمة ؟ فقلت : نعم . وانتحينا بعيداً عن أسماع الظباء فقال: أعرف أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، وأعرف ثانياً أنى أعلم منـك بقراءة الكف ، ولكنى واثق بالهزيمة إذا ناضلتك ، لأنك تحدث الفتيات بأحاديث أجهلها كل الجهل ، ويغلب على ظنى أنك لا تقرأ الكف ، وإنما تقرأ العيون ، ولا علم لى وحياة غاندى بلغة العيون

فقلت : وماذا تريد ، أيها الشيخ ؟

فقال : أرجو أن تبيعنى هذا الميدان

« وعندئذ تذكرت أنى موظف فى الحكومة المصرية وأن من الممكن أن يتعقبنى مندوب (آخر ساعة) أو مندوب (روزاليوسف) أو مندوب (الصباح) ، وأن من العقل أن أقبض ما يمكن قبضه وأترك الميدان »

— وماذا تقدم يا شيخ ؟

— أقدم عشرة دنانير

— أنا أترك لك هذا الميدان من أجل عشرة دنانير؟ هيهات!

— يا سيد ، أنت فى وطنك وأنا غريب

— ونحن لا نترك خيرات بلادنا للأجانب

— أنا لست أجنبياً بالمعنى البغيض لهذه الكلمة ، فأنا مسلم مثلك وأتكلم اللغة العربية

— إنك رجل لبق يا شيخ ، ولكنى لا أترك هذا الميدان بعشرة دنانير

— أنا لم أغنم من هذا الموسم غير أربعين ديناراً

— أنت إذاً جهول ! ولو كنت مكانك لجمعت ألف دينار فى شهرين

— هذا ما وقع وأنت تعرف يا سيدى أن عمل السحر صار قليل المكاسب بفضل المقالات التى تكتب ضده كل يوم . وأنت يا زميلى تعرف ما جنت علينا حذلقة أصحاب الجرائد والمجلات

— إذن تدفع عشرين وتحفظ لنفسك عشرين

فقبل الرجل وقدم المبلغ ، فأخذته وانصرفت

وقد علمت بعد ذلك أن عرائس الشاطىء شككن فى قدرته على فهم أسرار الكف فبار سوقه وضاع

أما أنا فقضيت فى دراسة هذا العلم النفيس حتى تفوقت فيه ، ولكل مجتهد نصيب

***

أليس من الغريب أن يكون هذا حالى فى العلم بمصاير القلوب ثم أجهل مصير قلبي ؟

إن هذا لدليل على ضعف القدرة البشرية ، إن كان ذلك ما يرتاب فيه الزنادقة والملحدون

جلست إلى الرمل أستلهمه وأستوحيه ، والأمر للهوى

— بابا ، بابا

— نعم يا عمى

— لك أعداء فى الشام ، وسينصرك الله عليهم

— طيب ، طيب ! (وماذا جنيت حتى يكون لى أعداء فى الشام أو لبنان ؟)

— ولك أعداء فى مصر ، وسينصرك الله عليهم ، قل آمين

— آمين ، آمين !

— ولك فى العراق فرد عدو (يعنى عدواً واحداً)

— طيب

— ويجيء إليك فرد مكتوب

— من وين يا عمى ؟

— من بغداد

— خير ، خير

— وأنت تحب فرد امرأة ، وأكو [1] ناس يحسدونك

— أكو خوف يا عمى ؟

— ماكو خوف ، ولكن احترس

فنفحت الرجل درهما [2] ومضيت

وبالقرب من جامع مرجان سمعت صوتاً ينادينى فالتفت فإذا أحد سعاة البريد يقدم إلىّ خطاباً فعجبت من أن تفضحنى ليلى إلى هذا الحد ، ونظرت فرأيت العنوان مكتوباً بهذه الصورة الطريفة :

« لحضرة الأستاذ الخفيف الروح الدكتور زكي مبارك

يسلم إليه أثناء تجواله فى شوارع بغداد ! ! »

شيء ظريف حقاً ! وأى ظرف أروع وأمتع من أن تصبح دار إقامتى موزعة بين شوارع بغداد ، وأن ترى مصلحة البريد أنها مسئولة عن البحث عنى فى شوارع بغداد ؟

إن مرسل هذا الخطاب لا بدّ أن يكون أظرف الناس .

وإذا كان العنوان بهذه الصورة من اللطف فسيكون الخطاب ولا ريب آية الآيات فى خفة الظل ولطف النسيم

(١) أكو : يوجد ، ويقابلها (ماكو) أى لا يوجد . فى اللهجة العراقية

(٢) كلمة (درهم) لا تزال حية فى العراق وهى قطعة تساوى (الربع ريال) فى العملة المصرية

ولـكنى ما كدت أفض الظرف وأنظر الخطاب حتى انزعجت . فهو بغير إمضاء وكاتبه ينهانى عن عيادة ليلى ، ويهددنى بالقتل ... أمرى إلى الله لا إلى الهوى !

ورأيت أن أحتاط لنفسى فذهبت أستشير صديقاً بالمفوضية المصرية سبقنى إلى العراق بسنتين ؛ فكان من رأيه أن أبلغ الخطاب إلى الشرطة . وأكد لى أن العراقيين لا يعرفون المزاح فى هذه الشؤون . وبعد ساعة من تسلم الخطاب كنت عند سعادة رئيس الشرطة ، فكان أول كلامه بعد رد التحية أن قال :

— إيش لون ليلى ؟

— أهدَّد من أجلها بالقتل !

وقدمت إليه الخطاب فكان يقرأ والغضب ينقله من لون إلى لون ، ثم ابتسم فجأة وقال :

— ولـكنه صفح عنك !

— صفح عنى ؟ وكيف ؟

— ألم تقرأ هذه الجملة ؟

ونظرت فإذا فى نهاية الخطاب « ولـكنى عدلت عن هـذا الخاطر لأنى إذا قتلتك قتلت معك علماً غزيراً فى الطب ، وذوقاً دقيقاً فى الأدب » فعجبت أن تفوتنى هذه الجملة ، ولـكن يظهر أن انزعاجى صرفنى عن استيعاب الخطاب ؛ والتهديد بالقتل يصنع أشنع من ذلك . عافى الله قراء هذه الذكرات من الأسواء

ولما اطمأننت إلى صفح غريمى فى هوى ليلى تشجعت وقلت : ومع هذا فأنا لا أبالى أحداً ، وقديماً قال جميل :

فليت رجالا فيكِ قد نذروا دمى وهمّوا بقتلى يابثين لقونى
إذا ما رأونى طالعاً من ثنيّة يقولون من هذا وقد عرفونى

فقال رئيس الشرطة وهو يبتسم : يجب أن تثق يا دكتور أن العراقيين يفدون ضيوفهم بالأرواح ، وهم لا يخافون عليك إلا عادية هواك

***

٢ — تفضل سكرتير محطة الاذاعة العراقية فدعانى لإلقاء محاضرة عن الحِكَم العطائية ؛ وأنا فيما يظهر رجل خدّاع ، فقد ظن الأستاذ فؤاد جميل أنى أصلح الناس للكلام عن حِكَم ابن عطاء الله ؛ ولعل حياتى فى بغداد هى التى هدته إلى ذلك ، فقد رآنى أحفظ آداب الصيام ، وأؤدى الفرائض والنوافل ، فظننى رجلاً تقياً ، ونسى هذا الأديب أن الغريب لا فضل له فى التخلق بمكارم الأخلاق . وهل يستطيع رجل مثلى أن ينحرف عن الصراط المستقيم فى بغداد ؟ إن استقامتى فى هـذه المدينة ليست إلا ضرباً من الآداب الصناعية ، ولن تكون لهـا قيمة إلا إذا عاملنى الله عز شأنه بالمثل المأثور :

« يؤجر المؤمن رغم أنفه »

وهنا أشعر بأن الله تباركت أسماؤه خصنى بمزية قليلة الأمثال ، فأنا أحاسب نفسى قبل أن يحاسبنى الناس ، وأدوّن عيوبى قبل أن يدونها الكرام الكاتبون ، وربما كنت الرجل الوحيد الذى يخفى حسناته — إن كانت له حسنات — حتى لا تزل قدمه فى منزالق الرياء

أقول إنى ألقيت محاضرة فى محطة الاذاعة عن حِكَم ابن عطاء الله ، ولـكنى ما كدت أودع جمهور المستمعين حتى كان المذياع يجلجل :

يقولون ليلى فى العراق مريضة
فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وكانت لحظة طرب لن أنساها ماحييت ، فاسم ليلى يشوقنى ، وبفضل ليلى رأيت العراق . وبدا لى أن أسأل عن صاحب الفضل فى إمتاعى بهذا الصوت ، فعرفت أنه الأستاذ يونس بحرى صاحب جريدة العُقاب . ويونس بحرى أديب شرب ماء النيل ، وذاق لذة الأسمار فى القاهرة ، وعرف كيف تطيب الأصائل والعشيات فى مصر الجديدة والزمالك والمعادى وحلوان ، وتمرغ على الرمل المقدس : رمل الأسكندرية وبورسعيد ودمياط ، وقد شاء له وفاؤه لمصر أن يؤنسنى بهذا الصوت ، لأنه يعرف أنى طبيب ليلى ، ولأنه يعرف أن السيدة نادرة حضرت نادى الصحافة منذ سنين فلم تر إلا أن تجلس بجانبى عند أخذ الصورة التاريخية ليصح لها أن تقول إنها رسمت وبجانبها قلب خفّاق

وليس من التزيد أن أقول إن محاضراتى فى الاذاعة ينتظرها الناس فى جميع أرجاء العراق ؛ وكذلك كان إلقاء ذلك الصوت بعد محاضرتى شاهداً على حلاوة الدعابة العراقية التى خلدها أبو الفرج الأصفهانى على وجه الزمان

***

جلست بعد المحاضرة أستمع هذا الصوت، والرفاق يضجون من حولي بالضحك، وفاتهم أني صرت كالذي قال:

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الحلم بعد الجهل أسبلتا معا

فقد كنت أعرف أن ليلى تسمع، وكنت أعرف أنها ستطرب لهذا الصوت الذي حبسه البغداديون عن أذنها خمس سنين، وكنت أعرف أنها لو رأتني لقبّلتني. ولكن هل تقبّلني ليلى؟ ليت ثم ليت!

وخرجت من دار الإذاعة فعبرت دجلة من الكرخ إلى بغداد وأنا في ذهول، فحدثتني النفس بحلاوة الغرق في ذلك النهر الذي وَعَى ما وعى، وضيَّع ما ضيَّع، من أسرار القلوب. ثم تذكرت ديوني في القاهرة، ديوني للوجوه الصِّباح التي تعطّر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك، وديوني لعرائس دمياط اللائي تفردن بنعومة الأجسام وعذوبة الأحاديث:

ربّاه سُخْتَ فؤادي من الأسى والحنين
ولم تشأ لضلوعي غير الجوى والشجون
فكيف تصفو حياتي من الهوى والفُتُون
أم كيف تُرجى نجاتي من ساجيات الجفون

وهل من الاثم في هوى ليلى أن أحنّ إلى هوايَ في القاهرة عروس الشرق؟

هل من الاثم في هوى ليلى أن أتذكر غَبُوقي بمصر الجديدة وصَبُوحي بالزمالك؟

هل من الاثم في هوى ليلى أن أقول إني أبذل دمي إن استطعت لأقضي ليلة واحدة في ضيافة ليلى الصحيحة في حلوان؟

متى تعود أيامي وأستأنف اختطاف القبلات في القطار بين المعادي وحلوان؟!

وما كنت أنتظر أن يخط قلمي أمثال هذه الاعترافات، ولكني أحب أن تغار الإنسانة التي سيخلّد اسمها شارع العباس ابن الأحنف في بغداد، فإن غارت فهي ليلى بنت ليل وإلا فهي صخرة تنمرها الثلوج في أقاصي الشمال

وأقسم لئن لم تنته عن تغافلها البغيض لأحدثنّها عن لياليّ وأيامي في فندق مينا هاوس بسفح الأهرام؛ ولئن فعلت لأسوّبنّ إلى صدرها سهماً مسموماً لا يُرجى منه شفاء

ليلى، يا بنت الفرات!

أمري وأمرك إلى الهوى، فإليه ترجع القلوب!

***

ألم يأن لي أن أعود إلى حديث الضابط عبد الحسيب؟

إن حديثه لن يصل إلى ليلى حتى أكون أنسيتُها كل من في الوجود. وهل أمكنَ يوماً أن يكون لي فيمن أحب شريك؟

فلنقص حديث ذلك الغريم بلا تهيب ولا إشفاق

قالت ظمياء (وما أعذب كلام ظمياء)

— وأفاض الشيخ دماص في شرح الاستشراق والاستغراب ففهمنا أن المستشرق هو الذي يدّعي علم الشرق، والمستغرب هو الذي يدّعي علم الغرب. ثم تشعب الحديث من فن إلى فن، فانتقلنا من الأدب إلى السياسة؛ وليلى لم تشاطرنا الحديث، فقد كانت مشغولة البال بانتظار عبد الحسيب. وكانت ترجو أن يكون هو الفتى الذي رافقناه في قطار المرض. وبعد ساعات مرت على ليلى كأنها أعوام دخل شاب أخضر العينين، وكان هو يا مولاي، هو نفس الفتى الذي دارت معه ليلى في قطار المرض دورتين

— وكيف كان التلاقي؟

— فرّت ليلى من وجهه فرار الظبية الضعيفة من القانص الظلوم، فانزوت في أحد أركان البيت. وألحت السيدة نجلاء في أن تتفضل ليلى بالسلام عليه، فاعتذرتْ بأن سلام الفتاة على الفتى وهي ليست من محارمه أدب تنكره حرائر العراق

« للحديث شجون » زكي مبارك

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٩ —

« يتفتح الطفل باللعب كما تتفتح الزهرة »
« فروبل »

« الفرق بين مخ أرقى قرد وأحط إنسان أكبر بكثير من الفرق بين مخ أرقى إنسان وأحط إنسان »
« البيولوجيا »

الناحيتان البيولوجية والفسيولوجية

شرحنا في المقالات السالفة عملية التربية على ضوء الفلسفة وأشرنا إلى بعض « ما يجب أن يكون » وعلينا اليوم أن نرجع إلى « مجموعة العلوم » التي تتناول « الانسان » بالدراسة والتحليل لنسمع كلمتها فيه، ولنتخذ من نتائجها المحتومة كل ما يفيدنا في تكوين « بطلنا المنشود »؛ وفي ذلك بالطبع من زيادة الشرح وتكميل النقص ما فيه

ستسأل: وما هذه « العلوم »؟ وسأجيبك بأن مايهمنا منها هو علوم الحياة ووظائف الأعضاء والنفس والاجتماع؛ ثم ستسأل: وما علاقة ذلك بالفلسفة؟ وسأقول إن من خصائص الفلسفة الحديثة النظر في مبادىء العلوم ونتائجها، والخروج منها بوحدة متسقة منسجمة فيها من المعنى الجامع، والتفسير الشامل، والاتجاه العام، الشيء الكثير. وما دمنا في التربية حيال تلك القطعة الفذة من الخليقة « وأعني بها الانسان » فلا بد لنا أولا من أن نحاول فهمها وكشف خفاياها، حتى لا تكون أقوالنا عنها خيالية غير مجدية، وحتى نستطيع بعد حل لغزها بالعلوم المختلفة أن نسير بها إلى كل ما تتطلبه طبيعتها، وتحتمله قواها ويسمح به استعدادها. فترى ما هي كلمة البيولوجيا والفسيولوجيا في الانسان؟ الجواب كما يلي:

الناحية البيولوجية

وقد أصبحت هذه الناحية هامة وجديرة بالاعتبار في التربية ولا سيما بعد أن ظهرت « نظرية التطور » ووضعت الانسان في مكانه بين سائر المخلوقات. ولعلك تعرف أن محور البحث هنا يدور حول الكائن الحي من حيث ملاءمته بين نفسه وبين بيئته. ومع كل فلا يهمنا من ذلك في التربية إلا المخ، والطفولة، والعقل

(١) فأما المخ فقد ثبت نهائياً أنه في « الانسان » أكبر الأمخاخ بالنسبة للجسم، وأن الفرق بين مخ أرقى قرد وأحط إنسان أكبر بكثير من الفرق بين مخ أرقى إنسان. وقد لوحظ أن القابلية للتعلم والتهذيب تتمشى مع كبر المخ تمشياً مطرداً [1]، وإذن فمعنى كبر المخ في الانسان هو القابلية العظمى للتربية، وقيام المخ ذاته مقام الانتخاب الطبيعي وجوهرية عملية التعليم ذاتها بالنسبة للانسان والقدرة الكبيرة على التخلص من الغرائز أو تهذيبها مادام المخ يستطيع أن يقوم مقامها.

(٢) وأما طفولة الانسان فهي أطول طفولة معروفة، إذ بينا يصير فرخ الطير قادراً على الاستقلال بنفسه بعد أيام قليلة، لا يصير ابن الانسان كذلك إلا في سن لا تقل عن العشرين في الشعوب الراقية على الخصوص. وإذن فالتربية السليمة هنا أداة لا مندوحة عنها لاحكام عملية النمو وتحقيق آمال الجماعة في أفرادها

(٣) بقي « العقل » وقد أثبتت جميع تجارب الباثولوجيا والتشريح والفصل الجزئي علاقته التامة بالمخ المشتمل على المراكز العليا التي تقوم بالعمل المُروّى تاركة الأفعال العكسية واستجابات الغرائز للمراكز السفلى في العمود الفقري. وهذا « المخ » قابل للتربية كما يقول الأستاذ Halleck ولا سيما في سن الطفولة والشباب لأنه يكون حينذاك « مرناً » سريع التأثر، وإذاً فيسور تقوية نسيجه وقواه بتكوين عادات عصبية توفر الوقت وتترك للعقل فرصة للتفكير فيما هو أرقى من « الدفاع » [2] الذي يبدو أنه الوظيفة الأساسية للجهاز العصبي عند الحيوانات جميعاً. والتربية هنا توقظ القوى النائمة، وتحفز المستيقظة، وتربط الرذيلة بالألم، والفضيلة باللذة؛ وتغرس العادات الحسنة التي قد تعادل الغرائز في قوتها. ويؤكد الأستاذ Lankester بعد هذا

---

(١) ويسرنا هنا أن نقول: إن « ابن مسكويه » الفيلسوف الاسلامي قد سبق البيولوجيا الحديثة في تلك اللاحظة السديدة وقد توفي في سنة ٤٢٠ هـ

(٢) ويدخل في الدفاع المأكل والمشرب والنسل والمقاتلة وكل ما يضمن البقاء للكائن الحي

أن الجهاز العصبي في الأمم المتعلمة أقدر على قبول التربية منه في الأمم الأخرى . وإذاً فالفرق بين الوحشية والتمدن هو في الحقيقة فرق بين مخ يستجيب صاحبه للغرائز الطبيعية استجابة الحيوان ، ومخ يستجيب صاحبه لها استجابات حرة مهذبة معدلة فيها التسامي والتعويض ، والكبت والتحوير !

ولكن هل ترمى التربية إلى جعل جميع أعمالنا آلية عديمة الشعور ؟ الجواب كلا ! ذلك أن العقل الآلي لا يصلح قط للظروف الاجتماعية الدائمة التغير والتشكل . وإذاً فهي ترمى إلى إدخال عنصر « الشعور » في الأعمال حتى يمكنها إحكام التصرف على ضوئه النير ، وحتى تستطيع أن تشرق به على « اللاشعور » فتضيء ظلمته ، وعلى الزمن فتنبهنا إليه ، وعلى « المثل الأعلى » فتطمح بنا نحوه . وهناك لا نكون مجرد « آلات » تذهب إلى العمل وتعود منه إلى البيت ، ثم تخرج إلى المقهى ، وهكذا دواليك على نحو أوتوماتيكي خاص ؛ وإنما نكون في أعمالنا كائنات حساسة شاعرة تحيا حياة اجتماعية خصبة فيها التقليد النافع ، والتضحية السامية ، والمحبة النابضة ، والمنافسة السليمة ، والقابلية لإصلاح أنفسنا وعاداتنا كلما شعرنا بالنقص ورأينا الكمال[1]

أما النظرة العامة التي نخرج بها من هذه الناحية البيولوجية فهي العيش أولاً ثم الكماليات ، العيش ثم الفلسفة والفن ؛ هذا إلى جعل « الطفل » موجباً يؤثر لا سالباً « يتأثر » ، لأن المخلوقات الحية قد تشكلت ردود أفعالها أكثر مما تشكلت بالبيئة . ويقتضي بالطبع جعل المدارس دور « نشاط » نظري وعملي لا دور حشو واستماع ، والنظر إلى التربية ذاتها كعوض أساسي يسد للإنسان ذلك النقص الهائل الذي لا نجده في الحيوان ، وكأسلوب من « المواءمة المثلى بين المرء وبيئته » كما يقول الأستاذ هورن Horn [2]

الناحية السيكولوجية

أما هذه الناحية فنقول مع بعض مذاهب الفلسفة إن الحياة قد بدأت بالمادة ثم بالروح ، وإن الجسم والعقل لم يتلاش بعضهما في بعض بالرغم من شدة امتزاجهما ، فهما يكونان وحدة متسقة ويؤثر بعضهما في بعض تأثيراً كبيراً . ألا تنمو قوى العقل بالحس والحركة ؟ أو ليست الإرادة حركة مروّى فيها ؟ أو ليس « الشعور » — بعد هذا — صدى للإرادة والمعرفة ؟

ولذلك تنحصر مهمة التربية هنا في تسليح الجهاز العصبي بردود أفعال حرة منها الاعتيادي — عن طريق العمود الفقري — ومنها المروّى فيه — عن طريق المخ — وفي الاستفادة من نتائج التجارب القائلة بأن العمل ينهك المخ فلا يكون لعمله بعد أربع ساعات قيمة ما ، وبأن المخ يحتاج إلى غذاء خاص من الهواء النقي وغيره ، وبأن القوى العقلية تمر في مراحل تمتاز أولاها بسيادة « الذاكرة » ، وثانيتها بسيطرة « الخيال » ، وثالثتها بحكم « الفكر » ، وبأن التعب العقلي يمكن أن يجتنب إلى حد كبير بتنويع العمل على المراكز المخية المختلفة ، وبأن صحة الجسم واجبة والعدل بين مجهود الجسم والعقل أوجب ، وبأن وبأن مما لا يتسع المقام لذكره ...

هذا إلى أنها — تمشياً مع الحقائق أيضاً — تنصح بإدخال « العمل اليدوي » و « اللعب » في عملية التدريس . ذلك أنها تعتبر الأول خير أداة للتعبير عن النفس ، ولتنمية العقل وتدريب الحواس ، وربط المواد ، وتقوية الإرادة ، واكتساب الذوق الجميل ، وغرس القدرة على الإنتاج ، وتعويد الدقة ، وحب العمل واحترام العمال ، وتقدير العاملين[1] ! . وأما الثاني — وهو اللعب — فيقول عنه « فروبل » إنه يجعل الطفل يتفتح كالزهرة ويقول عنه شلر Schiller : « إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا به » ذلك أنه بعيد الغور في طبيعة الإنسان ، حتى أن الشعوب نفسها لتلعب أحياناً وتلهو كالأطفال ، وأنه ذو وظيفة أساسية في الحياة وإن اختلف العلماء في كنهها[2] ، وأنه إذا ما دخل في العمل الجدي جعله سهلاً مستساغاً وهيناً محبوباً . أليس الفن نفسه صدى للعب الخيال المنتج ؟ وإذاً فلا مندوحة لنا من العناية به في المدرسة والتدريس ، ولا مندوحة لنا من أخذ الجميع بالألعاب

(١) طبق هذا على رجال المقاهي والحانات وما أشبههم ، فإنهم جميعاً يصدرون في سلوكهم عن عادات غير مرنة ، ويحتاجون إلى « شعور كامل » بنقصهم وبكمال غيرهم أولاً ، ثم إلى إرادة قوية ثانياً ليقلعوا عن هذه العادات

(٢) أنظر كتابه A Philos. of Ed.

(١) وبذلك لا يكون العمل وصمة لدى شبابنا الناهبين ، ولا يكون العمال حثالة الشعب في نظر المتعلمين !

(٢) أنظر نظريات شيلر وسبنسر ولازاروس وجروس وبلدوين بكتب علم النفس المختلفة

التى تقوى شخصيتهم ، وتجمل أجسامهم ، وتبث فيهم الروح الاجتماعية والجرأة والحرية والديمقراطية والإقدام وضبط النفس والإيثار . ولكن ليكن مبدؤنا دائماً في المباريات العامة والخاصة هو أن « الخسارة بحق خير من الفوز بباطل ! » ، ولنتجنب ما استطعنا ألعاب المنافسات الحقيرة والعصبيات التافهة والانهماك الشديد ؛ وبذلك تكون المدرسة فردوساً يحفه المرح ويسرى فيه العمل الصحى بجميع نواحيه ، وتكون التربية « مواءمة عليا بين المرء النامى الجسم وبين بيئته [١] »

وإلى اللقاء حيث أحدثك عن الناحيــة النفسيــة فالناحية الاجتماعية

« يتبع » محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

(١) أنظر الكتاب الآنف للأستاذ هورن

المثل الأعلى للشاب المسلم

للأستاذ على الطنطاوى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

لقد انتهينا من تعريف المثل الأعلى والشباب والاســلام ، فلنشرع فى الموضوع :

قلت إن أندريه موروا وصف الشباب بصفتين أساسيتين : هما الحب والبطولة . أما الحب فهو عماد الحياة وركنها وأساسها ، لا معدى عنه ، ولا منجى منه . وأحسب أن الشباب الحاضرين ، بل وكثيراً من الشيوخ يصفرون لى وينزلوننى عن المنبر ، إذا أنا قلت لهم : « لا تحبوا » ، وكيف أقولها ؟ أجننت حتى أقول : « حطموا القلوب » ، ودوسوا العاطفة . وماذا يبقى لنا إذا خسرنا العاطفة ؟ لقد خسر ادوار عرش بريطانيا العظمى ، ولكنه ربح العاطفة فلم يخسر شيئاً . لقد أنسته عينا مدام سمبسون ملك انكلترا ، فهل كان ينسيه هذا الملك الضخم ، وهذا التاج المرصع ، عينى سمبسون لو أنه هجرها ... ؟

العاطفة هي التى تدير دولاب حياتنا ، وتسيّر أمورنا كلها ، أما العقل فلا يصنع وحده شيئاً . من يذكر منكم أنه مشى خطوة واحدة برأى العقل وحده ؟ العقل يا سادتى فيلسوف أعمى ، حكيم مقعد ، ينادى بصوت خافت ضعيف ... أما العاطفة فهى القوة ، هي النشاط ، هى الحياة ...

أنا لا أقول اقتلوا العاطفة ، لأن فى موتها موتنا ، ولكن أقول إن العاطفة تضيق حتى لا تشمل إلا شخصاً واحداً ، وتنحط حتى تنزل من قلب هــذا الشخص إلى ما تحت القلب ، إلى ما تحت ... السرّة ! وتسمو حتى تحيط بالمثل الانسانية العالية ، وتعمّ حتى تشمل الأمة كلها ، بل الانسانيــة جمعاء . فاسموا بعواطفكم عن مواطن شهواتكم ، واخرجوا بها من ذواتكم ، وقفوها على أمتكم وبلادكم

أحبوا ، فإن الذى لا يحب لا يكون إنساناً ، واذكروا واحلموا وتألموا ... ولكن افهموا الحب بمعناه الواسع الذى يشمل كل ما هو حق وخيّر وجميل ... لا المعنى الضيق العقيم ، الذى لا يتجاوز حدود جسم امرأة ... أحبوا ، ولكن ابقوا مسلمين .

إن للمسلم قلباً ، قال الله عز وجل : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب [١] أو ألقى السمع وهو شهيد » ، ولكن المسلمين يغضون عيونهم وقلوبهم وفروجهم (إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) .

أحبوا ولكن ابقوا رجالاً . إن الرجل إذا أحب لم يبك ويتذلل ويأرق الليل ، ولم يلق شفتيه على قدمى المرأة ، كما كان يفعل لامارتين ، ولكنه يقوم قائماً على مشط رجله ، ثم يقول لها ، بعينيه النافذتين ، وعضلاته الحجرية ، وإرادته الماضية ، وجولته البادية : « تعالى ! »

أحبوا ولكن ابقوا أفراداً من هــذه المجموعة البشرية التى هى الأمة ، لا يقطعكم الحب منها ، ويُبعدْكم إلى الحياة الفردية الوحشية ، فتنكروا كل شيء ، وتنسوا الدنيا ، وتتجاهلوا الحياة إلا إذا أشرقت عليها نظرة من المرأة وأضاءت فى أرجائها كلة منها . ولا تقيموا الدنيا وتقعدوها ، وتغرقوا الأرض بالدموع لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قبلة وعدت بها ، ولم تصل وقد لوحت

(١) مهما كان معنى القلب هنا ...

بالوصل ، تنظمون الأشعار فى هذه الكارثة ، وتنشئون فيها الفصول ، تبكون وتستبكون ، ثم تنامون آمنين مطمئنين ، والنار من حولكم تأكل البلاد والعباد ...

الشعر شعور ، فأى شعور وأى حس فيمن يرى أمة كريمة مجيدة بقضها وقضيضها ، ومفاخرها وتاريخها وحياتها وأمجادها تطرد من ديارها ، وتخرج من بيتها — وهى أمته ، وأفرادها إخوته — لتعطى مساكنها إلى أمة من أسقط الأمم : أمة ضربت عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب من الله ، وغضب من الناس والحق والفضيلة والتاريخ ، ويرى صدورها مفتحة للرصاص ، وشيوخها مسوقين إلى حبال المشانق ، وشبابها فى شعاف الجبال وبطون الأودية يدفعون الظلم بالدم ، وأطفالها ونساءها بين لصين : لص ديار ، ولص أعراض ، لص يحارب بالذهب ، ولص يقاتل بالبارود — ثم لا يحس بهذا كله ، ولا يدرى به ، ولا يفكر فيه ، لماذا ؟ لأن الشاعر المسكين مصاب متألم ... ماله ؟ ما مصابه ؟ إن حبيبته لم تعطه خدها ليقبله ...

إن العاطفة إذا بلغت هذا المبلغ كانت جريمة .

***

وما دمنا فى حديث الحب فلنوف الحديث حقه . إن لى تعريفاً قديماً للحب ، هو أنه المرقد (البنج) الذى وضعه الله لتمام عملية التناسل التى لا بد منها لبقاء النوع البشرى ، والتى لا يصبر الانسان على احتمال قذارتها وآلامها لولا هذا المخدر ، فأول الحب إذن ووسطه وآخره الاجتماع الجنسى والسلام ، أما الحب العذرى الافلاطونى العفيف فليس إلا إحدى الأكاذيب الجميلة ، التى لا يصدق بها عاقل . من أجل ذلك يشك العقلاء فى عفاف المرأة المحبوبة ، وينظر المسلمون إلى الحب نظر الريبة ... إنى لألحظ فى وجوهكم معنى الاستنكار والاعتراض ، وأرى فيها بوادر الثورة ... لا يا سادتى ... أنا لا أنتقد الحب ، ولا أشك فى جماله ، ولكن أسألكم وأرجو أن تجيبونى بإنصاف : من هو الذى يسمح لى فيكم أن أحب زوجته أو أخته ؟ لا تغضبوا يا سادتى ... فما أردت إلا التمثيل فجاء المثل غليظاً نابياً ، وإنى ليسرنى أن تستهجنوه ، لأن هذا دليل على أنكم للحقيقة أشد استهجاناً ...

فلنعلن إذن أن هذا الحب المعروف اليوم ، مما يأباه الاسلام ويتنافى مع المثل الأعلى للشاب المسلم ، ولكن ما ذا يصنع الشباب ؟

الجواب : يتزوجون ...

نعم يتزوجون . إن حياة العزب حياة خطرة على نفسه وعلى المجتمع . إنه صندوق ديناميت يوشك أن ينفجر فى كل لحظة فيدمر سعادة أسرة من الأسر ، وينقض دعامة من دعائم الوطن . إن حياة العزب حياة فارغة من كل شىء لأنها فارغة من الزوجة ولو امتلأت بكثير من النساء (غير الزوجات) . إن أفكار العزب مهما اختلفت مناحيها وتعددت متوجهة إلى وجهة واحدة ، تسمو إليها بشدة وعنف كما تسمى السيول من كل جهة إلى قعر الوادى ، إنه لا يجتمع عزبان إلا كانا مؤامرة على الأخلاق والعفاف

لست أبالغ ... أنا أيضاً شاب عزب ! ولكنى كسائر العزاب لا أحمل ذرة من اللوم ، وليس علىّ شىء من الذنب . الذنب عليكم أيها الآباء . إنكم تبيعون بناتكم . إنكم تصاهرون المال والجاه والأرستقراطية الزائفة ، إن حفلات العرس وحدها تخرب بيتى العروسين ... فما قولكم فى المهر والأثاث ؟ وما قولكم فى شاب مثلى فى رأسه شىء ، وليس فى جيبه شىء من مال ؟ كيف يتزوج ؟

لا أحب يا سادتى أن أكون منحطاً إلى هذه الدركة من الاستئثار و (الأنانية) فأستغل اجتماعكم لسماع محاضرتى لأعلن عن نفسى ، وأعرضها خاطباً مستجدياً ... ولكنى أحب أن تفكروا فى هذا الأمر تفكيراً جدياً . إننا قد شبعنا من الخطب ومللنا من المقالات ، فهل فيكم أب مسلم له بنات يكون قدوة طيبة للآباء المسلمين الطيبين ، فيفتش عن شاب صالح جاد فيزوجه بما يستطيع من المهر والنفقات : بخمسين ليرة سورية (1) بثلاثين لم لا ؟ أهى تجارة ؟ أتريد زوجاً لبنتك صالحاً تسعد به ويسعد بها ، وينشئان أسرة شريفة مستورة سعيدة أم تريد ذهباً تبيع به ابنتك ؟

هذا دواء هذا المرض العضال . هذا حل المشكلة . فاذا لم تحلوها اليوم لا تنحل أبداً ، إذا لم تداووا المرض اليوم يموت المريض ...

فيا وجهاء هذا البلد ، الوجاهة بالعمل النافع ، وبالتقوى والاصلاح ، لا بالمال ولا بالفخفخة الفارغة ، ولا بالعظمة الجوفاء ولا بالمراتب العالية ، فاعملوا أو فتنحوا عن أماكنكم لمن يعمل !

***

(1) الليرة السورية ٢٠ فرنكا فرنسياً — أى نحو ١٣ قرشاً مصرياً

وإن من الحماقة التى ليس وراءها حماقة أن تبنى الأسرة الثابتة على عاطفة متبدلة متحولة . من الحماقة أن يبنى الزواج على الحب . منذ الذى يبنى داره على كثب من الملح فى طريق السيل ؟ الحب فراشة حلوة ، فيها أجمل الألوان ولكنها لا تعيش إلا يوماً واحداً . الحب زهرة فوّاحة ليس لها فى الروض مثيل ، ولكنها تذبل عند أول لمسة . من رأيى فى الحب أنه لا يكون إلا إذا كان أمل ، وكان مع الأمل حرمان ، كالكهرباء لا تضيء المصباح إذا التقى فيها القطبان المختلفان . أنت تحب المرأة لأنك لا تقدر عليها ، فتسبغ عليها من خيالك ثوباً تراها فيه أجمل الناس ، فإذا قدرت عليها ، وخلعت هـذا الثوب عنها ، عادت امرأة كسائر النساء . أنظروا إلى الزوجين الحبيبين فى شهر العسل ، وقد ذهبا يسيحان ينعمان بالخلوة الحلوة ، فى أجمل البقاع ، أو أكبر المدن ، تحسبوا أن السعادة قد جمعت لهما من أطرافها ، ولكن اقتربوا منهما تروا أنهما لا تمر إلا أيام حتى لا يجدا ما يتحدثان به ، إلا حديث الأيام الأولى ، يوم كان أمل وكان حرمان ، ثم تمضى الليالى ، وتبلى جدّة هـذا الحديث ، فلا يبقى بينهما كلام ...

وماذا فى لغة الحب ، غير (أحبـكِ) و (أحبـكَ) رددها مائة مرة فإنكم تنامون ...

. فلنعلن إذاً أن بناء الزواج على الحب وحده لا يرضاه الإسلام ، لأنه لا يرضاه العقل ... فهل نعود إذن إلى طريقتنا الأولى : تخطب لى عمتى أو خالتى ، وتنتقى لى الزوجة على رأيها ، وأنزل أنا على حكمها ، وأعلق مستقبلى بها ، وأمضى العقد وأمشى إلى حفلة العرس ، وأنا لا أعرف ما لون عين العروس وما شكل أنفها ؟

هذه طريقة سقيمة عقيمة ... فماذا نصنع إذن ؟ ما هى الطريقة المثلى ؟ هى يا سادتى طريقة الإسلام . إن الإسلام منح الخاطب (بعد أن يتم الرضا عنه ، ويرجح جانب قبوله صهراً) أن يرى وجه المرأة وكفيها ، أن يجلس معها (بحضور وليها) ... هذه هى سـنة الدين ، ولكن الآباء جاهلون ، يأبون أن يرى الخاطب الصالح وجه الفتاة ، ثم يخرجونهـا إلى الأسواق ، متبرجة متهتكة ، يرى أكثر من وجههـا وكفيها الفاسق والخبيث ، وكل من كان فى الطريق ، حتى الحمار !

إننا تركنا قواعد الإسلام ، فتركنا الفلاح والنجاح

« البقية فى العدد القادم »

علي الطنطاوي
المدرس فى كلية بيروت الشرعية

من برجنا العاجي

فكرة الضحية وإهراق الدم للمعبود لم تزل باقية إلى اليوم . فالوثنية قد خلفت تقاليد لم يكن محوها من اليسير . إن ذبح الخروف فى العيد الكبير إن هو إلا ظل باهت لتلك العهود التى كان يُدفع فيها الآدمى للذبح عند أقدام الهياكل . ولكن الزمن غير الشكل ولم يغير المبدأ . إن الانسانية فى تطورها لا تمحو شيئاً غرس فى طبيعة الانسان من قديم ... ولكنها تبـدل فى لونه وطلائه ، وتعـدل فى ملامحه وتكسوه ثياباً أخرى ، وتسميه اسماً جديداً يتفق مع روح العصر الجديد . فالانسان لا يتغير . إنمـا يتطور . ولم يغب ذلك عن حكمة الأديان . فهى فى تعاقبها لم تنسخ كل ما رسخ من عقائد الانسان . ولكنها أخذت أكثر هـذه العقائد بالرفق ، فهذبت من وسائلها وغاياتها . فالضحية الآدمية جعلتها ضحية من الحيوان ؛ والغاية منها ، وقد كانت إرضاء المعبود وحده ، حولتها إلى إرضاء الله بإرضاء الفقير فى يوم العيد

هنالك شيء ينبغى أن نتدبره إذا أردنا إحداث انقلاب فى حياة البشر . الحذر كل الحذر من أن نقتلع شيئاً من جذوره ، فإن ما نبت فى قلب البشرية لا يقتلع . إنمـا نحن نستطيع دائماً أن نهذب ذلك الغرس وأن نميل به إلى حيث تريد ريحنا . وأن نبدل بما نشتهى ألوان أزهاره وثماره ، وأن نولد منه أقوى الأشجار ... وهكذا نخرج للحياة مما كان وعلى أساس ما كان ، ذلك الذى يقول فيه الناس إن عين الشمس لم تره . آه ! ما أصدق تلك الكلمة : لا جديد تحت الشمس . نعم . إن يد « الطبيعة » لا تبرز جديداً ولا تميت قديماً ، ولا تمحو من الوجود ، ولكنها تعدل وتبدل فى الوجود . فلنتذكر دائماً أن لا شيء ينعدم فى الطبيعة . وليست « المادة » وحدها هى التى لا تنعدم ، كما يقول الكيمائيون . كل شيء لا ينعدم في هذا الوجود . إن الطبيعة لا تعرف كلمة « العدم » ولكنها تعرف كلمة « التحول »

ذلك أسلوب الخالق الأزلى

توفيق الحكيم

الأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٤ —

« ... إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية فى صدر أيامها ! »
عباس محمود العقاد

الرافعى والعقاد

ذلك كان رأى العقاد فى الرافعى قبل بضع عشرة سنة من هذه الخصومة التي أروى خبرها . وشتان بين هذا الرأى يبديه العقاد سنة ١٩١٧ فى مقال ينشره ليعرِّف بكتاب من كتب الرافعى أنشأه في ذلك العهد ، وبين رأيه الأخير فى المهذار الأصم مصطفى صادق الرافعى كما يسمه فى سنة ١٩٣٣ !

إن هذه الخصومة العنيفة بين الرافعى والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذى بدأت فيه ، ومحورها الذى كانت تدور عليه ، إلى ميادين أخرى جعلت كلاً من الأديبين الكبيرين ينسى مكانه ويغفل أدبه ليلغ فى عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمم أو يرى فى ذلك معابة عليه . وكان البادئ بإعلان هذه الحرب هو الرافعى فى مقالاته على السفود ...

هم ثلاثة أو أربعة من كتاب العربية فى الجيل الحديث كانت لهم هذه الخلة المرذولة فى النقد وفى أساليب الجدل . هذان اثنان منهم وكان للرافعى مع كل واحد من الاثنين الآخرين معركة . على أن أشد هذه المعارك عنفاً وأبعدها عن حدود الأدب اللائق هى المعركة بينه وبين العقاد ! .

وكان بدء هذه المعركة كما قدمت حديثاً خاصاً بين الرافعى والعقاد فى دار المقتطف ، حول حقيقة إعجاز القرآن ، وكتاب إعجاز القرآن . وكان للعقاد فيهما رأي غير رأى الرافعى ، فكانت غضبة الرافعى الأولى لكرامة القرآن والعقادُ ينكر إعجازه ؛ ولكتابه والعقادُ يجحد فضله ؛ ثم كانت الغضبة الثانية للتهمة التى رماه بها العقاد حين جبهه بأنه افترى كتاب سعد ونَحَلَه إياه فى تقريظ إعجاز القرآن ليروج عند الشعب ...

فثمة سبب عام أنشأ هذه الخصومة ، هو إيمان الرافعى بإعجاز القرآن إيماناً لا يتناوله الشك ؛ وسببان خاصان : هما رأى العقاد فى كتاب الرافعى ، ثم تهمته له بأنه مفتر كذاب ... !

تُرى أى هذه الأسباب الثلاثة هو الذى أثار الرافعى فدفعه إلى الخروج عن الوقار والأدب الواجب فيما أنشأ من مقالات «على السفود»...؟ الرافعى يقول : إنها غضبة لله وللقرآن، وللتاريخ رأى آخر سيقوله فيما بعد ، لست أدرى أيفارق الرأى الأول أو يلتقى وإياه على سواء ... !

ولكن كتاب على السفود مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل فى هذا الخلاف ؛ فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد ؛ ثم عن أشياء خاصة تعترض فى فضول القول وحشو الكلام ؛ فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب الخصام ... ؟ الرافعى يقول : هذا أسلوب من الردّ قصدتُ به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه ؛ حتى إذا تقررت منزلته الحقيقية فى الأدب عند قراء العربيـة ؛ لا تراهم يستمعون لرأيه عند ما يهم بالحديث عن إعجاز القرآن. وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية فى فكره ، ولا يستقيم بيانها على لسانه؟... هكذا يقول الرافعى ! ...

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء ...

* * *

يقول الأستـاذ إسماعيل مظهر فى مقدمته لكتاب « على السفود » :

« ... أردنا بنشر السفود أن نرضى من أنفسنا نزعتها إلى تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء المستعصى الذى كان سبباً فى تأخر الشرق عن لحاق الأمم الأخرى ...

« ... ونقدم بهذه المقدمة تعريفاً لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التى أعتقد بأنه لم يُنسج على منوالها فى الأدب حتى الآن !

« وعسى أن يكون السفود (مدرسةً) تهذيب لمن أخذتهم

كبرياء الوهم ، ومثالاً يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة ! »

أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم يُنسج على منوالها فى الأدب الحديث فنعم ، وأما أن تكون مدرسةً للتهذيب ومثالاً يحتذيه النَّقَدةُ فلا ... فليس بنا من حاجة إلى أن يحتذى النقدةُ هـذا المثال فى أسلوب النقد والجدل فيزيدوا عيباً فاحشاً إلى عيوب النقد فى العربية

والحق الذى أعتقده أن فى هذا الكتاب — على ما فيه — نموذجاً فى النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصر بالعربية وأساليبها . ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليقاً بأن يطمس كل ما فيه من معالم الجمال فلا يبدو منه إلا أدَمُّ الصور وأقبح الألوان ، بما فيه من هُجْر القول ومر الهجاء ؛ ولئن كان هذا مذهباً معروفاً فى النقد للرافعى وخصمه واثنين آخرين من كتاب العربية فى هذا الجيل — إننا لنريد للناقدين فى العربية أن يكونوا أصحَّ أدباً وأعفَّ لساناً من ذلك ... !

ذلك رأى قلته للرافعى — يرحمه الله — فما أنكره علىّ ولا اعتذر منه ؛ فما يمنعنى اليوم شىء أن أعلنه صريحاً إلى الأدباء . ولقد همّ الرافعى منذ سنوات ثلاث أن يجمع كل ما كتب فى النقد بعد كتاب (المعركة) فى كتاب واحد ؛ فأبديت له الرأى أن يضم إلى هذا المجموع مقالات (على السفود) بعد أن يجردها مما يعيبها حرصاً على ما فيها من الفن ؛ فارتاح لهذا الرأى واطمأن إليه ، ولكنه لم يفعل ، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فكرته

وإنها لخسارة أن ترى التمثال الفنى البديع مغموراً فى الوحل فلا تصل إليه إلا أن تخوض له الحمأة النتنة وهيهات أن تُقبل عليها النفس ؛ وإنها لخسارة على العربية أن ترى هذا الفن البديع فى النقد يكتنفه هذا الكلام النازل من هجر القول ومر الهجاء

ولقد كان الرافعى نفسه يعترف بأن فى الكتاب ما لم يكن ينبغى أن يقول ، وبأن خصمه بما قال فيه كان علىك أن يسوقه إلى المحاكمة ؛ ولكن الرافعى مع ذلك كان مطمئناً إلى شىء آخر ...

قال الرافعى : « ... قال لى قائل : لقد قلت فى العقاد ما كان حرياً أن يقفه وإياك أمام القضاء ! ... ولكنى يا بنى كنت على يقين بأن العقاد لن يفعلها ؛ إننى كنت أهاجم العقاد بمثل أسلوبه فى النقد ، وإن مع لورقات بخطه لا يسره أن أجعلها دفاعى أمام المحكمة فيخسر أكثر مما يربح . ولقد قرأت من هذه الورقات على مستشار كبير فأيقن بما أنا موقن وحكمٌ لى محكمته ... ! »

ذلك حديث الرافعى ... فهل كان هذا حسْبَه من العذر فيما كتب ؟

على أن كثيراً من قراء على السفود لم يعرفوا كاتبه إلا بعد سنين ؛ وكان فى هذا خير للرافعى ولسمعته الأدبية ولمكانه من نفوس القراء ؛ إذ كان العقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، والوفدُ هو الأمة كلها ، قراءها وعامتها وشيوخها وشبابها ؛ فكان العقاد بذلك هو عند الشعب إمام الكتاب وأمير الشعراء ، لا يماديه إلا خارج على الأمة أو مارقٌ من الوطنية ، ولو كانت عداوته فى مسألة أدبية لا تتصل بالسياسة ، ولو كانت مناقشته حول إعجاز القرآن ... !

* * *

ثم كانت هُدْنةٌ بين الرافعى والعقاد ، صمت فيها الخصمان طويلا وكل منهما يتربص بخصمه ليضربه الضربة القاضية ، فلما مات المرحوم شوقى بك فى خريف سنة ١٩٣٢ ، انتهز العقاد نهزة ليبدأ مع خصمه معركة جديدة لم تكن هى آخر العراك بينهما

« شبرا » محمد سعيد العريان

أبو إسحاق الصابى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٤ —

كان العصر الذي نشأ فيه أبو إسحاق الصابى عصراً زاخراً بالكتاب النابغين والشعراء المجيدين ممن خلفوا للغة ثروة ثمينة خالدة، وتركوا فى الأدب روحاً فريدة صافية؛ إذ لم يعد الخيال وقفاً على الشعر، بل تعداه إلى الكتابة والنثر، فضرب الكتاب به فى ضروب متنوعة لم تعهدها العربية، وساروا به فى دروب متشعبة لم يألفها من قبلهم، وإن أغرم بها وسار على نمطها من جاء بعدهم. ولعلَّ من أعظم البواعث على رقى النثر والشعر فى هذا العصر ذلك الاضطراب الذى انتظم جميع شئون الدولة؛ فهناك اضطراب دينى يدفع إلى الجدل والمناحة، والنقد والمدافعة؛ واضطراب سياسى، يسوق إلى المؤازرة والمعاضدة، والمنافسة والمعارضة، فكان ذلك الجو المضطرب جو صفاء للغة وآدابها، وهذا العصر المكهرب عصر ازدهار للنثر والشعر على السواء، فاتسع أمام هؤلاء وهؤلاء أفق الابتكار، ولع بمجال الابتداع، وأوحى إليهم ذلك المعترك المنطق الخلاب، والخيال الصافى والبيان الرائع والنسج الساحر، فجاء نتاجهم عصارة أذهانهم، وذوب أفكارهم، وصفوة قرائحهم؛ تمعناً فى إبراز فكرهم واضحة جلية، وتمعلاً فى تنسيق آرائهم ناصعة صفية؛ لتبدو للقارئ مصقولة مستساغة يرضاها عقله البرىء؛ إذ لا يعتورها وهن ولا التواء، ولا يكتنفها غموض أو إبهام، وكثيراً ما كانت تدفعهم أحداث السياسة ودفع ما قد ينتظرهم من كوارث، وخوف ما ربما استقبلهم من حوادث، فيما لو تغير مجرى الأمور إلى الكتابة اللولبية، لا تكاد تتبين مرماها، ولا تعرف مأتاها أو مؤداها، إمعاناً فى الإبهام، وإيغالاً فى الإبهام. وناهيك بعصر نامت فيه السكينة وصحت الفتنة، وأشرقت الأسارير، وأظلمت السرائر؛ فلوكه متنافسون، وأمراؤه متنازعون، وقواده متحفزون، لايخشى أحد هؤلاء قربى، ولا يأبه لزلفى، كلا جمعتهم جامعة فرقتهم شيعاً مآرب، وإذا ألف بينهم حلف نقضته دوافع، وأولئك جميعاً يريدون الأدب للسياسة فرساً ذلولا يركبون متنه وسيفاً مسلولاً يشهرونه على ضغنهم، والويل أى ويل لمن تخلف عن الطاعة أو نكص دون تنفيذ الإرادة؛ إنه إذن لمن المنبوذين المبغضين، ينتظره الحيف ويترصد له الظلم كل مرصد. ومن هنا كان البطش يمض الكتاب والشعراء سنة مسنونة، فمن أمن اليوم فهو قليل الأمن والدعة غداً، ومن سعد فترات ترقبه النحس سنوات

ومن كتاب ذلك العصر الذى أسلفت وصفه الرئيس ابن العميد، والوزير ابن عباد، والكاتب أبو بكر الخوارزمي؛ ومن شعرائه أبو فراس الحمدانى، وأبو الطيب المتنبى، والشريف الرضى. ولقد كان الصابئ مع معاصرته لأولئك الأفذاذ الذين قلما يجود الدهر بأمثالهم، أو يسمح بمن يجرى على غرارهم جملة — مرموق الأثر، موموق الخبر؛ يجرى اسمه على الألسنة فى مراتع اللهو والأنس، أو مهامه اليأس والبؤس، وتتناقل أنباءه الأندية إن أصابته غبطة ونعماء، أو مسته مخمصة وضراء، وتعمر به المحافل والمجالس متى صفرت منه المعاقل والمحابس، وهكذا دواليك يظهره تاريخه حركة دائبة، لا تقفها نعمى تركن بها الدعة، ولا تفدحها بؤسى، فتستسلم للشدة، فهو كادح فى الحالين، وأداة عاملة لا يعطل محركاتها ميسرة أو معسرة. ولكأنى به يشحذه طول الضراب، ويستثير شعوره أمل الثواب، ويستحيي وجدانه توقع العقاب، فيأتى بما يلذ السامع سمعه، ويعجب القارئ وقعه، وسيبرز هذا الوصف واضحاً جلياً ما سأقدمه بين يدى الكتاب من كتاباته، وما أعرضه على الشعراء من فرائد أبياته، فسترى أن أروع نثره وأقواه ما جاء فى الشكوى؛ وأرق شعره وأرقاه ما جرى فى العتبى، ولقد عرف له فضله حامدوه وحاسدوه، ونفس عليه أدبه شاكروه وكافروه، وحسبه ذلك فخراً

نعم إن الصابى كان فى الشكوى والاستماح، والنصح والانتصاح قوى الصوغ والنسج رائع التصوير والخيال بارع النطق والبرهان، لا تعوزه الحجة، ولا تنأى دون غرضه المحجة. وإذا كان « خير الأدب ما انبعث عن عاطفة صحيحة لا مريضة » فشكوى الاعتقال وذم الحبس يصدران عن عاطفة صحيحة قوية لا سقيمة ضعيفة؛ ودعك من حبس الجسم والحد من حريته،

فذلك أهون خطبه وأيسر أمره ، وإنما من الشكاة تصدر عن سجين العقل معتقل الفكر مرهف الحس ، فذلك إذ ينثر أو يشعر يعبر تعبيراً قوياً جياشاً يستثير به العواطف الكامنة ، ويستجيش الشاعر الهامدة ، ليبعث فيها عواطف ثائرة للعطف عليه ولتستحيل المشاعر الخامدة مشاعر مشتعلة للبر به ؛ ومن يطالب مثل ذلك بالصبر والسلوى والسكون إلى البلوى وعدم الشكوى ، أو يعتبر إعلان ألمه خوراً في أدبه ، أو استظهار الناس إلى معونته ضعفاً في خلقه ، متطلب في النار جذوة نار ، أو هو كما قيل :

ومن البلية أن يسام أخو الأسى رعيَ التجلد ، وهو غير جلاد

ولو أن أبا اسحاق كان في سياسته كما كان في ديانته ، يكتب عن إيمان ، ويصدر عن عقيدة (مهما كانت حقيقتهما) لنجا بعض النجو من كثير مما أمضه ، ولكنه كما يروى الثعالبي كان يكتب كما يؤمر ، وكان كالمركب السهل يوجهه راكبه حيثما شاء ، فهو يتحدث بما يمليه عليه ربه ، ويعبر عن أفكار مولاه ، ومع هذا فانه يأتي بالمعجب ، فكيف به إذ يكتب عن عاطفة أو يشعر عن حانزة ؟ إنه ليجمع بين اللفظ الرشيق والمعنى العميق ، ومن ذلك الذي يبلغ به فنه الجمع بين لغة الألفاظ ولغة العواطف إلا الكاتب المالك عنان قلمه ؟ (لأن[1] الألفاظ « كما يقول الأستاذ أحمد أمين » لم توضع لنقل العواطف ، وإنما وضعت لنقل المعاني ، والألفاظ أعجز ما تكون عن نقل عاطفة الأديب إلى القارىء ، فكيف أنقل إعجابي بالطبيعة ، أو أنقل حباً ملأ جوانحي أو غضباً استفزني ، أو رحمة ملكت مشاعري ! لم توضع الألفاظ لشيء من ذلك ، وإنما وضعت لنقل مقدمات ونتائج منطقية ، ولكن ما حيلتنا وقد خلقنا عاجزين لم نمنح لغة العواطف ، ولا بد لنا من التعبير عنها ونقلها إلى قارئنا وسامعنا ، لذلك استخدمنا لغة العقل مرغمين ، وأردنا أن نكمل هذا العجز بضروب من الفن كموسيقى الشعر من وزن وقافية ، وكالسجع وكل ضروب البديع ، وليس القصد منها إلا أن نكمل نقص الألفاظ في أداء العواطف) إذا كان ذلك الرأي صحيحاً ولا إخاله غير ذلك ، فقد بلغ الصابي أفقاً لم يبلغه كاتب سواه

ويجدر بنا إذ نتحدث عن نثر الصابي أن نقسمه أقساماً ثلاثة : النثر الديواني ، والاخواني ، والنثر العام غير المقيد بأحد هذين الوصفين

فأما كتابته الديوانيـة فكان يصورها باللون الذي يريده عليه سيده ويرسمها بالريشة التي يهبها له ، فتارة تبرز سافرة واضحة هينة لينة ، ناعمة الكلمات رقيقة الفقرات رقيقة اللمزات والغمزات ، تبعث في نفس قارئها الرضا إن كان غاضباً ، وتوليه العتبي إن كان عاتباً ، والسكون إن كان عاصفاً ، وربما لحت في ثناياها الحكمة العابرة ، والأمثال السائرة . فمن ذلك قوله يؤلف بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة على لسان أولهما :

« والله العالم أني مع ما عودنيه الله من الاظهار ، وأوجدنيه من الاستظهار ، ومنحنيه من شرف المكان ، وظل السلطان ، وكثرة الأعوان — لأجزع في مناضلة عضد الدولة من أن أصيب الغرض منه ، كما أجزع من أن يصيب الغرض مني ، وأكره أن أظفر به ، كما أكره أن يظفر بي ، وأشفق من أن أطرف عيني بيدي ، وأعض لحمي بنابي »

وأحسبه خشي أن يدور بخلد أحد أن عز الدولة يتهافت على مرضاة قرنه أو أنه يرهب مصاولته وضغنه ، فبدأ الكتاب بأسلوب القوي الصارم ، واستهله بلهجة الغالب الظافر ، فذكر العز والمنعة ، والقوى والمنة ، والملك والسلطان ، والجند والأعوان وتأييد الله له ، والتفاف الأمة حوله ، ثم ثنى بالغرض الذي اليه أراد ، وهي فطنة وذكانة في جزالة ورصانة . ومن ذلك قوله أيضاً وفيه حكمة ومواعظ ، وتبصرة وذكرى ، وإن أنكر عليه الحكمة إلا قليلاً الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني حيث يقول : « وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلاً » :

« إن انتثار النظام إذا بدا — والعياذ بالله تعالى — لم يقف عند الحد الذي يقدر فلان أن يقف عنده ، ولم يخصص الجانب الذي يظن أنه يلحقه وحده ، بل يدب دبيب النار في الهشيم ، ويسري كما يسري النغل في الأديم ؛ وكثيراً ما تعدى الصحاح مبارك الجرب ، ويتخطى الأذى إلى المرتقى الصعب »

وتارة يشاء الموحي إليه صرامة وحزماً ؛ فتقرأ له كتباً أقوى من كاتبها منة ، وأرصن من منشئها قوة ، تخالها إذ تقرؤها لرجل مارس الحروب ، وخفقت فوق رأسه الألوية والبنود ، وسبح

---

(١) الرسالة . السنة الأولى العدد الحادي عشر

فوق متون الجياد ، وأوتى قوة وعزمة فى القياد والجلاد ؛ فهو يتقمص روح مليكه ، أو يستعيره قلبه الفتى عند ما يهم بكتابة رسالة من هذا النوع . وكأنى به يعصر فكره ، ويقدح ذهنه ، ويكد عقله ، ليأتى بالمعانى الشاردة تتصدع لها القلوب ، والألفاظ الصادعة تصك الآذان ؛ فكل كلمة من كلماته وعيد ونذر ، وكل فقراته نار يتطاير منها الشرر ؛ وقد يخلطها أحياناً بالسخرية اللاذعة ، والتهكم الساخر والهزء الممض ، دون إفحاش فى ذلك أو بذاءة . فمن ذلك ما كتبه على لسان عن الدولة إلى سبكتكين الغزنى :

« ليت شعرى بأى قدم تواقفنا ، وراياتنا خافقة فوق رأسك ، ومماليكنا عن يمينك وشمالك ، وخيولنا موسومة بأسمائنا تحتك ، وثيابنا المنسوجة فى طرزنا على جسدك ، وسلاحنا المشحوذ على أعدائنا فى يدك » . ويقول له أيضاً :

« تناولتك الألسنة العاذلة ، وتناقلت حديثك الأندية الحافلة ، وقلدت نفسك عاراً لا يرحضه الاعتذار ، ولا يمفيه الليل والنهار » . وتحدث عنه فقال :

« هو أرق ديناً وأمانة ، وأخفض قدراً ومكانة ، وأتم ذلاً ومهانة ، وأظهر عجزاً وزمانة من أن تستقل به قدم مطاولتنا ، أو تطمئن له ضلوع على منابذتنا ، وهو فى نشوزه عنا وطلبنا إياه كالضالة المنشودة ، وفيما نرجوه من الظفر به كالظلامة المردودة »

ومن هذا الطرز قوله أيضاً :

« ولما بَعُد صيته بعد الخمول ، وطلع سعده بعد الأفول ، وجمت عنده الأموال ، ووطئت عقبه الرجال ، وتضرمت بحسده جوانب الأكفاء ، وتقطعت لمنافسته أنفاس النظراء ، نزت به بطنته فأدركته شقوته ، ونزع به شيطانه ، وامتدت فى الغى أشطانه »

وإنا لنجد فى كتبه ورسائله محاولة قد تكون ناجحة فى هدم الرجال وتخضيد شوكتهم وتمضيد قوتهم ، تلك هى التهوين من شأنهم والحط من قيمهم ، فيصمهم بوصمة الذل ، ويسمهم بسمة الرق ؛ وذلك أحز فى النفس ، وأعلق بالذهن ، وأجرى على الألسن ؛ وربما كان حديث تنادر ، وطرف فكاهة . وهو يلم بالموضوع الذى يتناوله ، فلا يترك فيه فرجة إلا سدها ، ولا كوة إلا رقعها ، وربما استخدم فى سبيل ذلك الطب الذى تعلمه فى يفعه استخداماً نافعاً ؛ فقد عهد الخليفة إلى عالم بالقضاء فكتب إليه يوصيه ، فكانت وصاته خليطاً من حكمة الأطباء ، وطب الحكماء ، فذكره بأن البطنة شر الأدواء ، ونبهه على أنها تذهب الفطنة ، ثم بصره عواقب البطر ، وخوفه آثار الشره ، وأنهما يفسدان عليه أمره ، ويحطان من قدره ، وإليك كتابه :

« وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفاً يقف به عند أول حده من الكفاية ، ولا يبلغ منه إلى آخر النهاية ، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها ، وعوارض البشرية بأسرها ، لئلا يلم به من ذلك ملم ، ويطيف به طائف ، فيحيلانه عن رشده ، ويحولان بينه وبين سداده »

وهذه فقرات من رسالة يصف فيها حرباً نشبت بين المسلمين والروم ، وكانت الغلبة للمسلمين . يصور فيها الحرب وقد حمى وطيسها ، واشتعل أوارها ، فتتخيل إذ تقرؤها أنه أحد قوادها وبطل من أبطالها ؛ فإنه ليبعث النخوة فى النفوس ، ويثير الحمية فى الرؤوس ، فكأنه يشرع الأسنة لا اليراع ، ويشهر الرماح لا الأقلام ؛ وإن القارئ ليحسب أن كاتب الرسالة رجل من صفوة المسلمين ، وتقى من خلاصة المتقين ، لا صابئ من الكفار الجاحدين ، فهو يقول :

« فلما استعرت الملحمة ، وعلت الغمغمة ، ودارت رحى الحرب ، واستحر الطعن والضرب ، واشتجرت سمر الرماح ، وتصافحت بيض الصفاح ، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور ، وتنادى الكفار بالويل والثبور ، فنكصوا على أقدامهم مجدين فى الهزيمة ، واعتدوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة ، واستلحمتهم السيوف ، واحتكمت فيهم الحتوف ، وأخذ المسلمون منهم الثار ، وعجل الله بأرواحهم إلى النار »

ورسائله الديوانية كثيرة ، فلقد خدم عدة ملوك ، وطال به العمر فاتصل بكثير من الولاة والأمراء . ولعل ما بين أيدينا من كتاباته فى هذا الباب قل من كثر ، فقلما يعنى المؤرخون بمثل هذه الرسائل ، وإلا لكان له ولغيره ممن اتصلوا بالسلطان عن قرب أو بعد مجلدات يعيا بها العبء ، فلنجاوز هذا الضرب من النثر ، فقد عرضنا منه ما فيه الغناء ؛ وسنتحدث مستقبلاً عن الضربين الآخرين إن شاء الله ، ولم تقف بنا دورة الفلك

عبد العظيم على قناوى

الترجمة

خطرها وأثرها فى الأمم المختلفة

للدكتور عبد العزيز عزت

١ – عند الرومان

تمر على الأمم فى تاريخها فترات تشعر خلالها بحاجة إلى رفع نفسها إلى مستوى من سبقها من الشعوب فى مضمار التقدم الفكرى ، فيحدث إبان ذلك نوع من الهجرة الثقافية فى أنواع المعارف المختلفة وخاصة فى مجال الفلسفة ، لأنها حتى منتصف القرن الثامن عشر ، أى قبل أن تأخذ فلسفة كانت شكلها الحاسم ، كانت تفهم بأنها مجموع العلوم الإنسانية . ومن الطرق التى تمهد لهذه الهجرة الثقافية : الحروب تارة كما حدث إبان الحروب الصليبية من اشتباك التفكير المسيحى والتفكير الإسلامى ، وتارة التجارة فهى بجوار ما تحمله من السلع تحمل على وجه خاص تفسيراً لها وشرحاً عقلياً . وأمر الفينيقيين Phéniciens معروف فى هذا الباب ؛ ومنها الرحلات وأهميتها ظاهرة عند أفلاطون وتأثره بالتفكير المصرى القديم كما يلاحظ ذلك عنده فى مقدمة كتابه « طيماوس » Timée ، وكذلك عند ابن خلدون فى « مقدمته » ؛ ومنها البعثات العلمية فى خارج البلاد كبعثات فرنسا فى ألمانيا ، فرافيسون Ravaisson يشيد بذكر أستاذه شلنج Schelling ، وأستاذنا بوجليه Bouglé يشيد بذكر اهرنج Ihring ؛ وكبعثات مصر فى فرنسا ، فهناك من ينطق باسم جوستاف لوبون G. Lebon ، وهناك من يبشر باسم ديكارت وغير ذلك . ولكن مهما يكن لهذه الطرق من الأهمية فى هجرة الثقافة ، فهى فى نظرى ناقصة لأنها لا تخلق إلا عرفاً ثقافياً .

ومن أصول العرف عامة ألا يستقر على قرار متين ، لأنه يخضع لظاهرة التقليد فى المجتمعات البشرية كما يؤكد ذلك العلامة تارد Tarde فى كتابه « القوانين الاجتماعية » . لهذا لزم خلق قانون وضعى للثقافة يحدد شرعتها واتجاهها ويضمن لها الاستقرار والإنتاج خلال نزعة معينة ، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بالترجمة La traduction ، فهى الأساس الأول الذى عليه يبنى « التماسك » الفكرى فى عقلية الفرد ، والتماسك الفكرى فى عقلية المجتمع

وأهمية الترجمة تتلخص فى أربعة أفكار نجدها عند زعيم الأدب الفرنسى وأستاذه السابق بمدرسة المعلمين العليا بباريس العلامة لانسون Lanson فى « مجلة التاريخ الأدبى لفرنسا » عام ١٨٩٦

أولاً – تمهد الترجمة لخلق «فكرة عامة» عن الشعب المترجم عنه ، لأن الشعب المترجم إليه سيهتم فى ذلك الحين بتعرف تاريخه فى كل نواحيه ، وحالته السياسية والاجتماعية الراهنة ، وآدابه وفنونه ، وسائر أنواع نشاطه التى تكوّن حضارته فى مجموعها

ثانياً – الترجمة تحقق «الاستفادة المؤكدة» فى موضوعات معينة ، خلال تيارات محدودة للفكر ، إبان زمن معين للشعب المترجم عنه ، فهى استفادة مباشرة تفصيلية تشتق من مطالعة الكتب المترجمة ذاتها

ثالثاً – الترجمة تخلق موجة فكرية فتوجه الرأى فى الشعب المترجم إلى غايات معينة ، هذه الموجة هى موجة « تقليدية » فهى استفادة غير مباشرة ، وذلك بأن يأخذ كتاب الشعب المترجم إليه نفس موضوعات التراجم ولكنهم يعالجونها من وجهة نظرهم الخاص بهم فى بلادهم ، أى الاستمرار بالاستفادة المباشرة من قراءة التراجم لمعالجة موضوعات تحل بروح وطنية على ضوء ما تحتويه التراجم من علم جديد ، فهى تمهد الاستمرار الوطنى الأهلى « بالاستفادة المؤكدة »

رابعاً – بعد هذا ينتج عن الترجمة نوع من الانسجام بين عقلية المترجم عنه والمترجم إليه ، وهذا الانسجام هو تداخل عقليتهما ، وظهور نوع من التشابه فى ألوان تفكيرهما ، فيحصل ضرب من الاتحاد فى الذوق والتفكير والميول ، ويكتسب نشاط الاثنين نفس الشكل ، ويتجهان إلى نفس الغاية

لهذا عند ما أحس الرومان أنهم أهل حروب وسفك دماء يفرضون استعباد السيف باسم القانون والتشريع على الهادئين المطمئنين من خلق الله – ذهبوا إلى اليونان القدماء ينشدون أصول العقل ، واتزان الحس ، ومنطق الجمال ، ليقللوا من حدة طباعهم ، وتنافر غرائزهم ، ولينعموا – قليلاً – بما للانسانية

من معان سامية ، وآيات قدسية ، وأهم من يمثل حركة الترجمة عندهم هو بلا شك ، شيشرون Ciceron ، ولقد حاول دراسة هذا الرجل كل من العلامة فان هوسدو Van Heusde ، والعلامة بومهور Baumhauer ، الأول يبحث عن أثر أفلاطون فى مؤلفاته والثانى عن أثر أرسطو فيها ، وذهبا إلى طريقة عقيمة فى ذلك تتلخص فى مقارنة النصوص وتشابه معانيها ، مع أن شيشرون أخذ العلم والفلسفة فى بلاد مختلفة وليس فى أثينا Athènes فقط مهبط المشائين من الفلاسفة ، فهو قد ساهم فى تأثره العقلى لمدارس فلسفية مختلفة ، فدرس بجوار ذلك على فدروس Phaedrus الأبيقورى ، وفيلون دى لاريس Philon de Larisse ومن ينتمى إلى تعاليم الأكاديمية الجديدة كأنطيوخس Antiochus ؛ ودرس على الخصوص على ديودوتس الرواقى Diodotus ومن ينتمى إلى هذه المدرسة كبسدونيس Posidonius ، ثم إنهما لم يرجعا إلى الصفات الأساسية التى تميز العقلية الرومانية وأخصها كما يذكر العلامة Thiancourx — الجمع — L'éclectisme ، فحقيقة نجد عنده أثراً لأفلاطون وأثراً لأرسطو وإنما كذلك « وقبل ذلك » هناك أثر الرواقيين والأكاديمية الجديدة ، فهى التى سادت تربيته عند ما رحل إلى بلاد اليونان ، وهى التى سادت كذلك فى كل مكان فى زمانه وقبل زمانه ، لأن حروب الاسكندر الأكبر عاقت انتشار مذاهب أفلاطون وأرسطو سواء فى المجتمع اليونانى أم المجتمع الرومانى — كما يؤكد العلامة جانيه Janet : فبعد هذه الحروب حدث كما يحدث عادة بعد انتهاء كل حرب من ضعف أخلاقى لهبوط قيمة الحياة فى إفهام المحاربين والانغماس فى اللذات كنتيجة للانتصارات ، وكذلك ضياع الفهم السياسى وأهمية الفرد فى المجتمع ، وكذلك انعدام الروح الدينية والاهتمام بالنتائج المادية للغزو ، وهذا بطبيعة الحال يجنى على التصور السامى لغايات النفس فى أمور الحياة . ولما كانت فلسفة أفلاطون كأساس فلسفة « طبيعية » تهتم بفهم عالمنا الخارجى على قياس عالم داخلى هو عالم الأفكار الخالدة ، ولما كانت فلسفة أرسطو Aristote كأساس فلسفة منطقية تبغى إقامة العلم والوصول إلى الحقيقة المجردة ، شعر اليونان بعد تلك الحروب بحاجة إلى فلسفة جديدة تسمو بنفوسهم إلى مستوى أرفع مما وصلوا إليه ، أى كانوا بحاجة ماسة إلى فلسفة أخلاقية ، لهذا سادت مباشرة تعاليم الرواقيين وظل أرسطو نسياً منسياً حتى القرن التاسع الميلادى حيث ولد من جديد عند العرب ، ومن جديد كذلك إبان القرن الثالث عشر الميلادى عند آباء الكنيسة فى أوروبا خاصة القديس البير الكبير Albertus huagnus ، والقديس توماس St Thomas فهذه هي الحوادث التاريخية الصريحة التي بدونها لا يمكن أن يفهم المنطق التاريخى للفلسفات فى جولاتها المتعاقبة

على أية حال لقد كان شيشرون « زنجياً أبيض » Un nègre blanc لأسياده اليونان القدماء فى تفكيره وهو يعترف بذلك فى نص صريح تبينا فى استخلاصه من مؤلفاته حيث يقول فى الأتيكوس ad atticum,XII,S2 ما ترجمته : « إن مؤلفاتى لم أجد فى كتابتها عناء كبيراً ، لأنني بحثت فقط عن الاصطلاحات التى وفقت فى وضعها »

وفي واقع الأمر أن أغلب مؤلفات شيشرون إن لم تكن كلها عبارة عن « ترجمة حرفية » للكتب اليونانية القديمة ، بل أحياناً يعجز عن وضع الاصطلاحات لبعض التعابير اليونانية فيتركها على حالها دون نقل ، كما فعل بعد ذلك العرب في كلمة « ميتافزيقا » و « إيساغوجى » ، فهو يترك مثلاً اللفظين اليونانيين لكلمتي الأفكار والمثريات عند ما يعرض للأخلاق العملية ، ونجد فى وضوح أثر أفلاطون ظاهراً فى نواميس شيشرون the lâhibus ، وجمهوريته the Republica وفيهما يعرض فهمه للسياسة ، فهو يبني تحقيق دولة فيها تمتزج مبادئ الملكية والارستقراطية والديمقراطية فى آن واحد ، حتى يستقيم ظل الحكم وتسود الطمأنينة بين عباد الله ، لأن الحكومات القائمة فى عهده يعتبرها صورية تتخذ من الحكم سبيلاً لفرض السيف على رقاب الناس ووضع الحبل فى أعناقهم باسم الحرية تارة وباسم الصالح العام تارة أخرى . وأثر أرسطو على الخصوص فى التوسكيلان Tusculânes وفي هورتنيوس Horten Sius حيث يعرض فى الأول للنفس الإنسانية فى أصلها وطبيعتها وقدرتها فى التصور وأنواع ملكاتها المختلفة ، وخاصة الشهوات والانفعالات النفسية فى كل نواحيها بدقة تفوق الوصف ؛ وفى الثاني يعرض للأسباب التى دعته لدراسة الفلسفة وأهمية أرسطو فى هذا الباب

« البقية فى العدد القادم »

عبد العزيز عزت
خريج جامعات القاهرة ، وباريس ، وكليرمون
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنـــــكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم



ما أحوج بني الانسان كلما قطعوا شوطاً في طريق هذه الحياة ، أن يديروا وجوههم لحظة عن الأفق الذي يستقبلون ، وأن يرجعوا إلى ما استدبروا من آفاق متطلعين إلى تلك النجوم الزواهر التي تلتمع على جوانبها ، والتي ستبقى هنالك ساطعة باهرة ما دار الفلك وما تصرمت السنون

أجل ، ما أحوج الانسانية أن تهتدي في سبيلها بهدى الذين رسموا لها ذلك السبيل ؛ وما أحرى قافلتها كلما آدها العبء ، أو أعياها السير ، أو اعترضتها العقبات ، أن تستأنس بقبس من تاريخ أولئك البواسل الأبرار الذين تتألف من سيرهم مجتمعة سيرة البشرية في هذا الوجود

وها نحن أولاء نتجه بعقولنا وقلوبنا إلى سيرة الزعيم « لنكولن » رئيس الولايات المتحدة ، أحد أبناء الانسانية الغر الميامين وأحد أفذاذها البواسل . ولا لوم علينا معشر الشرقيين إذا تخطينا مشرق الأرض إلى مغربها ، بل إذا تخطينا الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة ، متخذين قبسنا في هذا الحديث من وراء المحيط . لا لوم علينا في ذلك ، فأبناء الانسانية العظماء متى اجتازوا باب الخلود صاروا للعالم كله ، ولا اعتبار في ذلك لشرق ولا لغرب

وما هذه الدنيا الجديدة التي أخرجت بطل حديثنا وما فصلها في تاريخ الوجود ؟ برزت الولايات المتحدة كدولة من دول العالم على حين غرة ، فكان بروزها السياسي شبيهاً بما يزعمه الجغرافيون عن وجودها المادي ، إذ يقولون إن أمريكا ، أو الدنيا الجديدة قد برزت من تحت الماء في حركة من حركات هذا الكوكب ! وما كان بروزها السياسي في الحق إلا حركة من حركات الشعوب في هذا المضطرب الواسع الذي نسميه العالم ؛ حركة لم تكن متوقعة من قبل ، ولم يكن يظن أحد يوم بدأت أنها واصلة إلى ما وصلت إليه !

سمع الناس في أوربا قبل أن تنبعث الرجفة الكبرى من فرنسا بسنوات قليلة عن أنباء عجيبة تأتيهم من وراء المحيط . سمعوا عن الحرية يرف جناحاها الجيلان ويتهلل وجهها الأبلج في تلك الربوع الفسيحة التي وجه كولمبس أنظار العالم القديم إليها قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون ؛ وسمعوا عن أختها الديمقراطية ترفع علمها وتشهر سلاح الإيمان واليقين ، سلاح « جان دارك » الخالد في وجه الطغيان المربد العبوس ؛ سمعوا عن مراكب من الشاي تقذف حمولتها في البحر وتأكلها النيران ، وسمعوا عن جموع ثائرة تلتقي هاتفة صاخبة ، وعن جنود تحشد خفافا وثقالا ، ثم ما لبثوا أن علموا أن الناس روعوا هنالك وزلزلوا زلزالا شديدا

وجاءت الأنباء تترى بعد ذلك عن حرب طاحنة ، تسمع في ضجيجها صيحات الاستقلال وحقوق الانسان حتى ترامت إليهم الأخبار عن انتصار يتلو انتصاراً تحت راية «واشنجطون» . وأخيراً علموا أن انجلترا سلمت مغلوبة على أمرها واعترفت في عام ١٧٨٣ م بمولد دولة جديدة انتزعت منها انتزاعاً ؛ ورأى العالم في ذلك دليلاً جديداً على أن الإيمان يفعل أكثر مما يفعل الحديد والنار !

ولدت دولة جديدة كانت قبل ذلك ولايات متنافرة متباغضة

ولكنها وجدت نفسها بعد مولدها مثقلة فراضت أحرارها على خشونة العيش ، وما كان هؤلاء الأحرار بعد استقلالهم ليشتروا به ثمناً قليلاً وهم سلائل أولئك الذين هاجروا من قبل فى سبيل الحرية إلى هاتيك الأصقاع من موطنهم الأصلى فى انجلترا . لذلك تحملوا الفاقة وأخذوا يكدحون كدحاً شديداً ، وتولت قبائل منهم حين ضاقت بهم المدن أصقاعا من الأرض البكر تنمو فيها الألفاف والأحراج من وحشى النبات ، يشقونها ويفلحونها ، ويعيشون فيها عيشة أولية كأنما عادت الانسانية فى أشخاصهم تبدأ حياتها من جديد !

وكان هؤلاء فى أصقاعهم هذه منعزلين عن عالم المدنية الانعزال كله ، يقيمون الأكواخ من كتل الخشب فى جوانب الغابات ، ويعيشون على الصيد وعلى قليل من الزرع ، ويفعلون ما كان يفعل آباء الانسانية الأولون ، يتعرضون لشرة الطبيعة ولا يأمنون شرة الوحوش ولا هجوم القبائل الأصلية من « الهنود الحمر » ويتناثرون هنا وهناك فى مساحات هائلة يمشون فى مناكبها جماعات ضئيلة العدد حتى ليخيفهم الفضاء وحده ولو لم يكن فيه شيء من عوامل الخوف

فى هذه البيئة الساذجة وفى كوخ حقير من الخشب يقوم وسط فضاء الطبيعة الرهيب الرحيب ، فتح إبراهام لنكولن عينيه على هــذا الوجود فى اليوم الثانى عشر من شهر فبراير عام سنة ١٨٠٩ م !

خرج الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة ، بل خرج إبراهام لنكولن أحد الفلاثل الأفذاذ الذين تفخر البشرية بانتمائهم إليها من هذه البيئة ودرج من ذلك الكوخ . وما كان ذلك ليعيبه ، بل إنه لمن دواعى الفخار إن قدر لمثل هذا العظيم أن يزهى أو يفتخر . وهو لعمرى مدين بجانب كبير من عظمة نفسه وسمو روحه إلى تلك البيئة التى خرج منها ؛ ذلك أنه نجا على نقاء عنصره وصفاء روحه من زخرف الحياة وغرورها ، ومن مفاسد المدنية وأوضارها ، ومن أوهام المجتمعات وكواذب أحلامها ، فخلص له معدنه الحر وبقى نقياً لم تعلق به الأوشاب ؛ وصار فى جميع أفعاله تتكشف جوانب نفسه عن طبيعة صادقة كأنما تتحرك عن إلهام أو تعمل بوحى ! وتمثلت فيه البشرية فى سذاجتها وكمالها وفى ضعفها وقوتها وفى إشفافها وعلوها ؛ وصار الناس يلمحون فى سجاياه براءة الطفل وتوقد عاطفته إلى جانب نزعات الفيلسوف ورجاحة عقله ! وكم للفقر من يد على العظماء ! وكم أخرجت مثل تلك البيئة الطليقة الخالصة من رجال أماثل ومصابيح أعلام قادوا القافلة واستقاموا على الطريقة ، أو على الأصح استقامت بهم الطريقة ووضحت المحجة !

ذلك هو لنكولن الناشىء فى الشوك من أيامه ، وتلك هى صفاته فى جملتها كما ستتضح لك فيما سيأتى من حديثه . وكأنك تقرأ سجاياه فى أسارير وجهه ؛ وتحس فيها ما تعوده فى حياته من البأساء والضراء . فإذا نظرت إلى صورته رأيت شبح حياته الأولى فى رأسه الأشعث ، ولمحت زكانة نفسه فى جبهته العريضة العالية المجعدة ، وأحسست طيب قلبه وصفاء طويته ورقة عاطفته ونفاذ بصيرته فى عينيه الوديعتين المتسائلتين ، وتبينت صرامته ومضاء عزيمته فى أنفه الغليظ الأشم . ثم أبصرت قوة صبره وشدة تحمله وروعة استسلامه تختلج كلها على شفتيه المضمومتين المعبرتين عن مض الحوادث ، وطالعتك من هاتيك الملامح فى جملتها سذاجة الأطفال وهيبة الرجال ؛ ثم تهلل من وراء ذلك كله سر العبقرية الذى يدق عن كل وصف ويسمو على كل تحليل !

فتح الوليد عينيه على الوجود فى لوح أقيم من الكتل الخشبية فى مقاطعة كنتوكى بعد استقلال الولايات بنحو ستة وعشرين عاماً ، فنما كما ينمو وحشى النبات فى ذلك الإقليم ! نما على ما تجود به الحيوانات من ألبانها ، وتدثر بجلودها ، ثم تغذى ثمار الشجر واضطجع فى مهد من أوراقها الجافة كأنه فرخ من أفراخ الطير . ولما بدأ يدرك الأشياء وجد عاله فى ذلك الكوخ الذى لم يكن يزيد اتساعه على أربعة أمتار فى مثلها والذى لم يكن فيه من الأثاث إلا وحشيه وغليظه ، من جلود مجففة إلى آنية جافة شوهاء إلى قطع غليظة من الخشب سوتها فأس أبيه التى كان يراها بين آونة وأخرى معلقة على الحائط بجانب أداة أخرى كانت تبدو غريبة فى عينه الغريرة ، تلك هى بندقية أبيه التى كان يحملها على كتفه كلما سار نحو الغابة ، فهى لذلك تختفى فى النهار وترى بالليل على حائط الكوخ

وكانت الغابة أو كان الجزء المحيط منها بالكوخ هو نهاية

ما يصل إليه خيال الطفل من هذا الوجود . وحسبه الآن من الوجود أن يلعب ويمرح فى هذا المضطرب وإن لم يكن له فيه من رفقة سوى أخته التى تكبره بعام ؛ وأن يستمع إلى ما ترويه له أمه من أقاصيص وأنباء يلتهما التهاماً وأن يصغى إلى ما تجيب به عن أسئلته الكثيرة

على أنه كان ينظر إلى الغابة نظرة الرهبة والدهشة معاً ؛ وكان يعجب كلما رأى أباه مقبلا من بين الأشجار ، بندقيته على كتفه ومعوله فى منطقته ، وفى يده طائر أو حيوان يدفعه إلى أمه إذا وصل إلى الكوخ فتأخذه فى فرحة ظاهرة وتهيء الطعام للأب وللأسرة جميعاً

فى هذه السن الباكرة يرى الغلام الحياة من قرب رؤية مباشرة ، فهو يعيش كما كان يطلب « روسو » فى أحضان الطبيعة حيث يرهف حسه ويقوى وجدانه ويعمق خياله وتنبسط نواحى نفسه الصغيرة وتستشف ما فى هذا الكون العجيب من سحر وجمال وتستشعر ما فيه من سر ورهبة

أليس يرى من كثب كيف تطعم الأسرة وكيف تكتسى ؟ أليس يرى التعاون بين الوالدين وما ينتج من راحة واطمئنان ؟ أليس يرى الكدح فى سبيل العيش ؟ وحسبه فى سنه أن يرى ذلك وأن يلمسه

على أن مجال الحياة يتسع أمامه بعد أن تخطى سنته الخامسة إذ انتقلت الأسرة فأقامت كوخاً جديداً على طريق مطروقة كانت تؤدى إلى إحدى المدن القريبة . وهناك يرى الغلام أنماطاً من الناس غادين رائحين ويرى دواب وعربات وأشكالاً من الملابس تختلف اختلافاً كبيراً عما اعتاد رؤيته على جسد أبيه ، فيتأمل ويعجب بينه وبين نفسه

وفى السابعة من عمره يصحب الغلام أباه إلى الغابة ، هنالك حيث بدأ يقوم بنصيبه من العمل ، فيساعد ذلك الأب الذى يقطع الأخشاب ويصنع الأثاث ويبيعه ، ويكسب من وراء ذلك نقوداً تحتاج إليها الأسرة ، وإنه لفخور الآن بمساعدة أبيه ، لا يحفل بتعب فى تلك المساعدة التى يباهى بها أخته ، وإن كانت هى أيضاً تقوم بنصيبها فى مساعدة أمها ؛ ولكن هل كانت « سارا » تستطيع أن تسوى الخشب وتجره وترتبه ؟ هل كانت تستطيع أن تحمل الصيد إلى الكوخ كما كان يفعل « أيب[1] » الصغير ؟

كان لا ينقطع عن العمل إلا فى أيام الآحاد ، إذ يجلس وأمه وأخته وأباه أمام الكوخ فيستمع فى شغف ولذة لما تلقى أمه من أقاصيص وما تتلو من حكايات مشتقة من الإنجيل . ولقد أحدثت تلك الحكايات فى نفس الغلام أثراً عميقاً وظلت مسحتها الدينية تلازمه بعد ذلك فى جميع أطوار حياته

وجاء بعض ذوى قرباه فأقاموا إلى جوارهم وأقبل الغلام على خاله وخالته يستزيدها الأنباء والأقاصيص ، وكم كان معجباً بتلك الخالة التى تكتب وتقرأ وتحبذ أن يتعلم الغلام القراءة والكتابة على الرغم من إعراض أبيه عن ذلك وعدم اهتمامه به

وبدا للغلام يوماً فسأل عن أسرته ، وأين نشأت ، وممن انحدرت ؟ فسمع ردوداً مبهمة لم ترو ظمأ نفسه ، وماذا كان يتوقع الغلام ؟ أكان يحسب نفسه سليل سادة أكابر ؟ ولكن ما كان أبعد فكره عن هذا ؟ وهل رأى غير بيئته وأسرته ؟

ولئن سمع غيره من الأطفال من آبائهم عما كان عليه جدودهم من عظمة وماتقلبوا فيه من نعيم الحياة ورفيع المناصب ، لما كان لمثله أن يسمع شيئاً من هذا . وأنى له ذلك وهو ابن الأحراج والأدغال ؟ . وغاية ما سمعه عن جده ما حدثه به أبوه ذات مرة ، أنه بينما كان يساعد أباه — جد « أيب » — فى الغاب ومعه أخواه إذ انطلقت رصاصة من بين الأدغال فأصابت ذلك الأب فخر صريعاً ، وجرى الأخوان نحو الكوخ ، وبرز من بين الأشجار أحد الهنود الحمر وحمله يريد أن يأخذه إلى داخل الغابة بعد موت أبيه ، لولا أن صوب أكبر الأخوين بندقيته التى أحضرها من الكوخ مسرعاً ، إلى رأس ذلك الهندى فأرداه قتيلاً

فسمع الطفل ذلك الحديث وقد علقت أنفاسه ودق قلبه إذ رأى مبلغ ما أحدق بأبيه من الخطر ، ورأى أنه أشرف على الموت لولا بسالة عمه لذهب كما ذهب جده ، وهاله موت جده على تلك الصورة ، وكان ذلك كل ما عرفه عن ذلك الجد ، أو قل كان

(١) Abe اسم أطلق على الغلام على سبيل التدليل وصار يعرف به بين الناس حتى انتخب رئيساً للولايات المتحدة

هـذا هو نصيب جده من العظمة ومن جاه الحياة ! ولـكن متى كان الإنسان بجدوده وآبائه ؟ وأى فضـل لامرئ يرث الجاه ولا يكسبه ويُعطى العظمة ولا يبنيها ؟

تلك هى حياة « أيب » وذلك هو محيطه وهو فى السابعة . أجل هى تلك حياة رئيس الولايات المتحدة فى أولى مراحلها فى أحراج مقاطعة كنتوكى حيث لا مدنية ولا تعليم ولا رفاهة ! كلا ، بل لقـد ذهب الغلام إلى المدرسة فى خاتمة تلك المرحلة ؛ ولـكن أية مدرسة هى ؟ كانت كوخاً من كتل الخشب أقيم كما أقيم كوخه الذى يعيش فيـه ، وكانت تبعد عنه نحو أربعة أميال ، وكان يذهب إليها كلما استطاع أن يطلقه أبوه من أعمال النجارة فى الغابة فيجلس سـاعات مع الصبية على الأرض إلى معلم يعلمهم الهجاء بأن يناولهم كتاباً واحداً يمر عليهم جميعاً الواحد بعد الآخر فيتعلمون الحروف ورسمها ونطقها ! ويسأل الصبي نفسه فى لهفة شديدة متى يستطيع أن يكتب ويقرأ كما تفعل خالته وأمه ؟ إن ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه

(يتبع) **الخفيف**

جوامع النجف الأشرف

للشيخ ضياء الدين الدخيلى

من ذكرياتى التى أنتعش كلما حلقت فى سمائها سويعات ممتعة ألقيت فيهـا محاضرة على زمرة من أساتذة العالم العربى فى مدرسة ، طالما حنت أضلاعها على جهابذة قادوا الرأى العام الإسلامي وبقوا مصابيح هداه فى عصر كانوا هم المهيمنين على جميع مقدرات أمة القرآن . منذ بضع سـنوات طرق النجف الأشرف وفد الجامعة المصرية وفى طليعته الأسـتاذ أحمد أمين والأسـتاذ الزيات حين كان رسول الأدب إلى عاصمة المأمون . إذ ذاك تحفزت لمقابلة تلك العبقريات اللامعة التى أنفقت ليالى فى الاستمتاع بثمراتها الثنية بالغذاء الروحى ؛ ما هى إلا خطوات أثقلتها الخواطر والعزمات حلتنى أن أغادر مدرسة السيد كاظم اليزدى (إحدى المدارس الإسلامية الكبيرة فى النجف الأشرف) لاستقبال موكب الثقافة ، وإذا بجلبته تملأ مدخل المدرسة الشمالى ، فوقفت تحت مصـباح زيتى يلفظ أشعته الباهتة كأنه رمز عصر ينقرض ؛ فى سكون المدرسة الذي زاده اعتكار الليل وروعة المفاجأة — هيبة وجلالاً — وقفت أحدث أفلاذ القاهرة عن قطعة من جسم مزقته الحوادث القاسية عن الحركة العلمية والأدبية في هذا البلد الطيب ، أحاطوا بى يصغون إلىّ وقد تآلفت القلوب الخفاقة وألهبت العواطف دم العروبة الإسلامية فـكللنا بهالة من روابط روحية قدسية . وتمضى الأيام وإذا بسماحة السيد أمين الحسينى ورفيقه دولة محمد على علوبة يزوراننا فأجتمع بهما فى نفس البنية لأحدثهما عن حياتنا الدراسـية ، فأجد فى إقبالها وابتهاجهما طلائع الوحدة العربية الإسلامية تتجلى متجلببة هـذه النزعة للتعارف فالتآلف فالتضام ؛ وحقاً إن الحركة العلمية فى هذه البقعة وأساليب الدراسة — ذات أطراف وأفانين شائقة تتطلع لتفرسها النفوس تواقة لـما فيها من مزايا وصبغة خاصة وليدة عوامل عديدة لم تجتمع لغير هذه المعاهد ، فقد لاحظت ذلك حتى فى الغربيين إذ جاءنا سرب من الأمريكان والانكليز منذ أيام فزاروا المدرسة وبينت لهم طرفاً من سير الدراسة وترجمت لهم إلى الانجليزية حديث بعض إخوانى من أساتذة ذلك المعهد ، فأثار الوضع إعجابهم ولم نشعر إلا وآلات التصوير صوبت شطرنا تلتقط المشاهد المختلفة كأنها تحاول أن تلقى علينا درساً عن تقديس السياح الغربيين للمادة المحسوسة فى موضع لم يكترث فيه أبناء مصر وسورية لغير روحياته ، وكم بين الشرق والغرب من شذوذ وفوارق !

الحياة المدرسية فى حاضرتنا متشعبة الأطراف ، حسبى أن أزودك منها بقطفة العجلان ولمحة الطائر ، مخططاً لك فكرة عامة سوف أشفعها بتفصيل واف قد يرضى الأستاذ علياً الطنطاوى ومن شاطره رغبته

يزدحم فى جوامع النجف الأشرف ألوف المهاجرين لانتجاع الثقافة الاسلامية قد امتطوا ظهور الأسفار من كل حدب وصوب من شتى الأقطار الشيعية . ففيها العشرات من سورية من جبل عامل وغيره ، والألوف من مختلف أنحاء إيران وفيها من سمرقند وبخارى وغيرهما من تركستان ، وفيها من أذربيجان وفيها الـكثير من الهند والأفغان وهضبة التبت ، هذا عدا من يرتادها من أطراف العراق ومن شيعة الحجاز . لذلك قد شيدت فى النجف الأشرف

المدارس العديدة ذات الغرف المعدة لإيواء الغرباء حيث يكفل المجتهدون (وهم أئمة الشيعة الذين يرجعون إليهم فى بيان أحكام دينهم مستنبطيها من القرآن والحديث وأسس التشريع الإسلامى) ضمان معاشهم وتجهيزهم بأهبة الدراسة ، ينفقون عليهم من بيوت المال التى تصب فيها الشيعة الذهب والفضة من كل ناحية وجانب باسم الزكاة والخمس وحق الإمام وأثلاث الموتى وغير ذلك من الوجوه الشرعية



نموذج من مدارس النجف وهي صورة القسم الشمالى من الصحن العلوى المقدس

يبدأ الطالب بدراسة النحو والصرف فينكب على الأجرومية ثم شرح القطر لابن هشام ، ثم شرح ألفيـة ابن مالك لابن بدر الدين (هذا منهاج الطلاب العرب ، أما الفرس فيدرسون كتباً بعضها بالفارسية يلمها مجلد باسم جامع المقدمات ، ويدرسون شرح السيوطى لألفية ابن مالك) ثم يتناول الطالب مغنى اللبيب لابن هشام ، ثم يشرع فى المنطق فيدرس حاشية الملا عبد الله على منطق التهذيب ، ثم شرح الشمسية ، ويتوسع بشرح المطالع ومنطق إشارات ابن سينا وشرحه وكتب كثيرة كحاشية الخبيصى ومختلف كتب المنطق مجهداً نفسه بمراجعة الشروح والحواشى عليها بأسلوب ودراسة لا تعرف النظرة السطحية ؛ ومن ثم ينكص قافلاً إلى الأدب فيدرس شرح التفتازانى المطول لتلخيص المفتاح فى المعانى والبيان والبـديع ويتوسع بمراجعة الإيضاح ومفتاح العلوم للسكاكى ، وشرح السيد الشريف للقسم الثالث منه ، ولا يذر مؤلفاً فى البيان إلا ويوسعه تمحيصاً

وبعد علوم البيان يخوض الطالب غمار التشريع الاسلامى وقد سبب انفتاح باب الاجتهاد عنـد الشيعة أن تشعبت أطراف علم الفقه وكثرت المؤلفات فيه وفى أصوله

نبدأ بدراسـة (المعالم) فى أصول الفقه للشيخ حسن ابن الشهيد الثانى نضم إليها كتاب (الشرائع) فى الفقه للمحقق الحلى ثم ندرس (القوانين) فى الأصول للمحقق القمى مع (شرح اللمعة الدمشقية) فى الفقه والأصل للشهيد الأول والشرح للشهيد الثانى ثم ندرس (الكفاية) فى الأصول للشيخ ملاّ كاظم الخراسانى ثم فى الأصول العملية (رسائل) الشيخ مرتضى الأنصارى مع كتابه فى الفقه (المكاسب) ولا يقنع الطالب بهذه الكتب بل يكثر الترداد على المصادر الأخرى للتوسع فيطالع فى الأصول (بحر الفوائد فى شرح الفرائد) وحاشيتي سلطان والشيخ محمد تقى على المعالم و (حقائق الأصول) و (عدة) الشيخ الطوسى و (أنيس المجتهدين) و (تشريح الأصول) للشيخ ملا على النهاوندى و (خزائن) الدربندى و (منهاج الأصول) و (غاية المسئول) و (شرح العضدى) و (تهذيب الأصول) إلى غير ذلك من الكتب العـديدة فى الأصول التى قضيت فى دراستها زمناً ذهبياً (بأوراقها الصفراء) ونطالع فى الفقه (جواهر الكلام) وهو فى عدة مجلدات من أهم الكتب بتوسع مؤلفـه كثيراً فى أبحاثه ولا يترك مذهباً فى المسألة لا ينقد أدلته ، و (الحدائق) و (المسالك) و (المدارك) و (البرهان القاطع) و (تذكرة العلامة) و (قواعده) و (سرائر) ابن ادريس و (الرياض) و (مستند الشيعة) و (مختلف) العلامة و (تحريره) و (جامع المقاصـد) و (جامع الأعرجى) وشرح منظومة بحر العلوم و (كشف الغطاء) و (المبسوط) و (طهارة) الشيخ وهو مجلد واحد ، وقد وجدت للعلامة الشيخ دخيل كتاباً فى عشرة مجلدات أسماه (بأنوار الفقاهة) وإن هـذه المجلدات العشرة كلها تبحث فى فصل واحد فى الفقه وهو فصل الطهارة فياله من توسع فى البحث .!

وبعد دراسة كتاب (الرسائل) فى الأصول يحضر دروس العلماء الكبار الذين يحاضرون في التشريع الاسلامي وأصول الفقه متخللة أبحاثهم جولات فى علم الرجال وفي التفسير والفلسفة (التى يدعونها هنا الحكمة) إذ يرتفع المجتهد على منبر عالٍ حيث يزدحم تحته المئات من الرؤوس (البيضاء والسوداء بعمائمها) تلك الرؤس التي هذبتها الدراسات الفردية فعادت لا تستند إلى كتاب

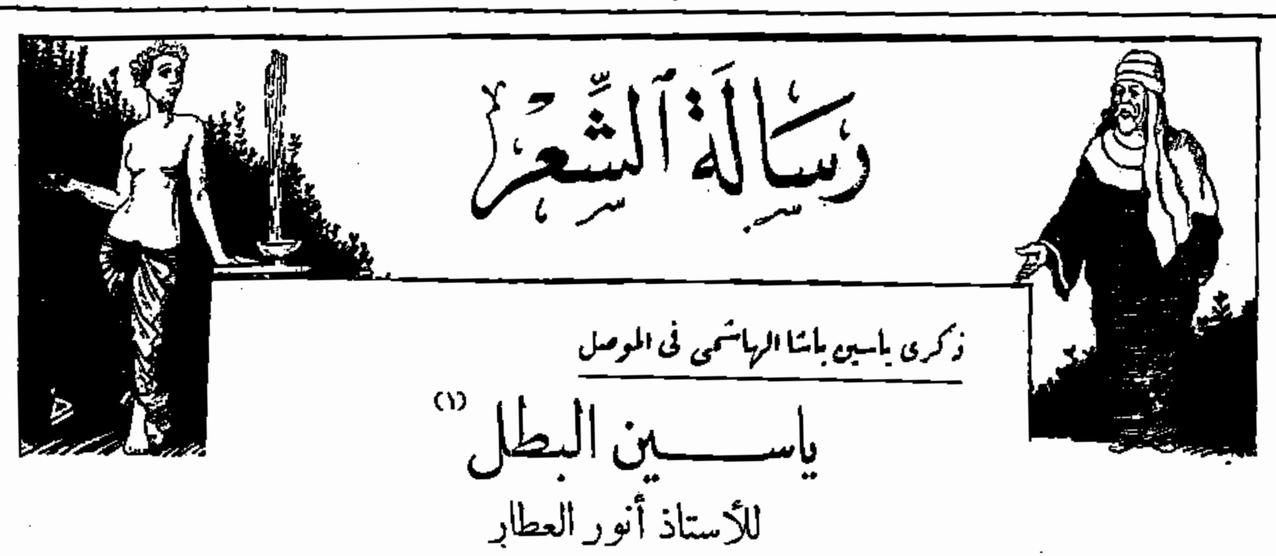
تفتحه بينها وبين أساتذتها كما كانت في الأول ، إنما يتناول المجتهد أطراف العلم فيناقشه طلبته بكل حرية ويتنقلون في الفصول المختلفة من دون التزام بكتاب واحد وإنما يستعرضون المذاهب في المسألة وينقدونها من جميع وجوهها على ضوء حرية الفكر ثم يرجحون ما يختارونه من الآراء ، وهنا يقضي الطالب عدة سنوات حتى يدرك درجة الاجتهاد وهي ملكة يقتدر بها على استنباط أحكام الشرع الشريف من مصادرها ، حينئذ يمتحنه مجتهدو عصره ليعطوه إجازة الاجتهاد وهي الشهادة العليا . وفي السنين الدراسية الأخيرة يتجه البعض إلى دراسة الكلام والفلسفة الاسلامية فيدرسون فيهما (شرح المنظومة) للسبزواري و (شرح التجريد) للعلامة الحلي و (شرح إشارات ابن سينا للخواجه نصير الدين الطوسي و (أسفار) ملاصدرا و (الشوارق) لعبد الرزاق اللاهجي و (الشفاء) لابن سينا . والحق أن جوامع النجف الأشرف تدرس الفلسفة الاسلامية بتوسع لا مزيد وراءه . كنت أدرس شرح إشارات ابن سينا لدى شيخ فارسي يدعى (الدامغاني) فكان يتمعن في تدقيقه فلا يدرس في اليوم أكثر من نصف صفحة أو ربعها بالرغم من أن الدرس يستغرق ساعة أو أكثر وكنا نذهب إلى داره بعد الظهر بقليل وذلك في صيف النجف الأشرف تكليف شاق لا يطاق لشدة الحرارة في هذه البقعة الجافة . في هذه البلدة الجاثمة على حدود الصحراء العربية الملتهبة بضرام حصاها ولا سيما أني كنت أخرج من سراديب مدرسة السيد كاظم اليزدي التي تتوغل عميقة في الأرض حيث تغوص بك في مناخ بارد شتوي يضطرك إلى الالتحاف بما يقيك أذى البرد القارس . ولربما يتذكر تلك السراديب الأستاذان الزيات وأحمد أمين وصحبهما فقد أنزلت الوفد إلى سراديب المدرسة وحملت له المصباح وجلنا في أحشاء هذا المعهد العلمي . ولكم أعجبت تلك السراديب السياح فكتبوا عنها الكثير وهي ابتكار لطيف في التغلب على الطبيعة القاسية والتمرد على عذابها ـ ولكن أستاذي الدامغاني كان أقسى . فكم أجهدنا في خوض معارك الفلاسفة الدامية يقذف بنا في جحيم الخصومة المنيفة بين الخواجه نصير الدين الطوسي وبين محمد بن عمر الخطيب الرازي وكل منهما شارح للإشارات ، ولكني ابتليت قبله بأستاذين درست عليهما الفلسفة في حلقتين كبيرتين تضم العراقي والفارسي والتركي والسوري الخ كأنها سفينة نوح في الأساطير ، كان كل من هذين الأستاذين مفتوناً بسعة اطلاعه في المذاهب الفلسفية وما نسجه العقل البشري من أحابيل وأضاليل وما كشف النقاب عنه من حقائق ناصعة فكانا غفر الله لهما يركضان بنا في ميادين واسعة من أفكار فلاسفة اليونان من مشائين وإشراقيين ومن محاجّات فرق الملة وطوائفها من أشاعرة ومعتزلة وشيعة وصوفية وباطنية حلولية إلى غير ذلك ؛ فإذا حمي الوطيس بين هذه المذاهب فليس عليك إلا أن ترهف سمعك ليفيض عليك هذان الأستاذان بخلاصة جهودهما الفكرية ، ألا أزيدك أن النجف الأشرف في هذا العصر تدرس الطب اليوناني القديم وفيها أطباء من خريجي جوامعها يعالجون الأمراض المختلفة حسب تعاليم شرح النفس في الطب وغيره ؛ وفي جوامع النجف الأشرف يدرس علم الهيئة والفلك عدا العلوم الرياضية الأخرى ؛ أما علوم الأدب من لغة وعروض وقافية وتاريخ أدب وشرح النصوص الأدبية ، أما التاريخ الإسلامي والعلوم الاجتماعية ، فإن طلبة جوامع النجف الأشرف لا يتركون كتاباً جديداً إلا ويقتنونه ويوسعونه بحثاً وإنعام نظر ، وقد خرجت هذه المدرسة كثيراً من الشعراء النابغين

والمكتبات في النجف كثيرة منها الخصوصية وبعضها يفتح لعامة الناس كمكتبة آل كاشف الغطاء ومكتبة المعارف . وعندي مكتبة تضم حوالي ألف كتاب كثير منها مخطوط عزيز ، وقد زارها البحاثة عبد العزيز الميمني الهندي المعلق على أمالي القالي فرأى كتاباً مخطوطاً قديماً أعجبه فقال : « لو ضربت آباط الإبل إلى الصين ولم أحظ بغير رؤية هذا الكتاب لكفاني ذلك غُنماً »

وإن الطلبة هنا مشغوفون باستشراف الحركات الأدبية في العالم العربي من مصر وسورية والمهجر ، ولمؤلفات (لجنة التأليف والترجمة والنشر) سوق رائجة لدينا

ولكننا لا يسعنا أن نفيض في الحديث أكثر من هذا فيمل القارئ الكريم وإنما هذه نبذة تحدثت بها بصفتي أحد خريجي هذه الجوامع المقدسة

(النجف الأشرف — العراق) ضياء الدين الدخيلي



ذكرى ياسين باشا الهاشمي في الموصل

ياسين البطل (١)

للأستاذ أنور العطار

ياصورةً مِلْؤُها الإحسانُ ساميةً ... قبستُ من وحيها الشعرَ الذى أجدُ
غنى بها الدهرُ مزهوًّا بروعتِها ... وعاشَ يمرَحُ فى أعطافِها الأبدُ
يُمِدُّها النورُ بالأفلاكِ ساطعةً ... حتى تكادَ منَ الأَضواءِ تتقِدُ
قالوا لمن صغتَ حرَّ الشعر تكرمةً ... ومَنْ تُرى بثناءِ الدهرِ ينفرِدُ
فقلتُ « للهاشمى» الفذِّ أُحكِمُهُ ... وأنتقي الكلِمَ الباقى وأحتشِدُ
« ياسينُ» نورٌ مِنَ الإخلاصِ مؤتلقٌ ... مِنْ نفحةِ اللهِ لم يُخْصَصْ بهِ أحدُ
مِنْ معدِنِ الحزْمِ والتصميمِ جوهرُهُ ... يكونُ حيثُ يكونُ الرأىُ والسددُ
إذا العُروبةُ لم تسلُكْ محجّتَهُ ... يومَ الهزاهزِ لم يبرَحْ بها أوَدُ

* * *

ضمنْتَ للوطَنِ المجروحِ عزّتَه ... فأنتَ آمالُهُ الكبرى وأنتَ غدُ
أما تذكرُ أياماً لهُ غبرَتْ ... وملءُ أحشائِها الترويعُ والسَّهَدُ
تفتّحتْ حُفَرُ الأجدادِ صارخةً ... وهبَّ مِنْ رقدةِ الآبادِ ملتَحِدُ
شبّبتَها ثورةً حمراءَ لاهبةً ... تكادُ مِنْ هوْلها الأطوادُ ترتعِدُ
لسانُها فى الفضاءِ الرحبِ مندَلِعٌ ... ووجهُها فى فمِ الجوزاءِ منعقدُ
يسيلُ «دجلةُ» صخّاباً بها حنِقاً ... يرغو على ضفتيهِ الثأرُ والضمَدُ
وأنتَ فى غمراتِ الموتِ تقحّمُها ... تُظِلُّ نفسكَ روحٌ للعلى ويدُ

فى فتيةٍ حلبُوا الأيامَ أشطُرَها ... وصافحوا الموتَ لم يفتُرْ لهم جلَدُ
عاشُوا جمالَ الدُّنا حتى إذا نزلتْ ... بهم مناياهمُ بين الورى خلدُوا
كأنما يبدءونَ العمرَ ثانيةً ... فإنْ همُ لفظُوا أنفاسَهمْ وُلدوا
كأنهمْ فى فضاءِ اللهِ ألويةٌ ... دمُ الجهادِ على أطرافِها يقِدُ
والمخلصونَ جلالُ الكونِ ماطلعُوا ... والمخلصونَ سنا الأيامِ ما همدُوا
فى العبقريةِ أحقابٌ لهمْ قُشُبٌ ... وفى البطولةِ آبادٌ لهمْ جُدُدُ

* * *

حلّقتَ كالنَّسرِ فى الجوزاءِ مرتقياً ... وخلفكَ الناسُ فى أثوابِهمْ جمَدُوا
يروْنَ فيكَ مَضاءً لا كِفاءَ لهُ ... وعزْمةً تخلُقُ الأبطالَ أوْ تلِدُ
نفَّضُوا الهامَ إعجاباً وتكرِمةً ... والناسُ إن بهرتْهمْ خلّةٌ حمِدُوا

* * *

أُقصيتَ عن وطنٍ مارُمْتَهُ بأذى ... وعِشتَ تبنى له العلياءَ أو تمدُ
تنكّرت لك دنيا لا ذمامَ لها ... وخانكَ الصَّحْبُ والأدنَوْنَ والبعدُ
أيرتعُ الغِرُّ فى أمْنٍ وفى دعةٍ ... وأنت ناءٍ عن الأوطانِ مُبتعِدُ
من همَّ يسألُ عن «ياسينه» لهفاً ... مشى به القيْدُ أو ألوى به الصفَدُ
لما نُعيتَ إلى أرضِ العراقِ ضُحًى ... ضجَّ الفضاءُ وضجَّ السهلُ والجلَدُ
وزوّعتْ فئةٌ للبغْيِ جاحِدةٌ ... حاق الشقاءُ بها والنحْسُ والنكَدُ
خافوكَ ميْتاً وما بالميتِ من فرَقٍ ... لما نُعيتَ تهاوَوْا ثمّتَ افتقدُوا
كأنهم فى سوادِ الليلِ أخْيِلةٌ ... لولا الخيالاتُ فى دُنياكَ ماوُجِدُوا
لم يلبثُوا أن توارَوْا فى معايبهمْ ... وجُرِّعُوا الموتَ لم يفطُن لهم خلَدُ

* * *

(١) « ألقيت هذه القصيدة باسم « نادى الجزيرة » فى الحفلة الأدبية الكبرى التي أقامتها « الموصل » تذكاراً لمرور عام على وفاة الزعيم العربى الخالد المغفور له « ياسين باشا الهاشمى »

مشت « دِمشقُ » وراء النَّعش جازعةً
يكادُ يُضعِفُهَا الأحزانُ والكمدُ

تَبكي ابنَها البَرَّ قدأودى الِحمامُ به ... فضاع فى مَوته التِّبيانُ والرَّشَدُ
عَمَّ الذُّهولُ رِباعَ الشام من أسَفٍ ... كأنها مُقلةٌ دَمعاءُ أو كَبِدُ
قد فَجَّرَ الألمُ الجبارُ أدمُعَهَا ... كما تَفجَّر يومَ العارضِ البَرَدُ
لا الأُنسُ يُضحكُ فى أرجائِهَا أَلقاً ... ولا النعيمُ عَلَى جنانِهَا يَفِدُ
إلا الكآباتِ تعلو الأفقَ غامرةً ... وللكآباتِ صوتٌ صارخٌ فَرِدُ
لَهْفِي عليها ولهفَ العُرْبِ قاطبةً ... مات الحبيبُ ومات القائدُ النَّجِدُ

***

ياسِينُ لا تحتفِل كيداً رمَوْكَ بهِ ... ولا يَهولَنكَ ما حاكوا وما سَرَدُوا
فأنت كالشمسِ إن تَسْمُ العيونُ لها ... تَرتَدُّ عنها وفى أجفانِهَا رَمَدُ
لم يلبث الحقُّ أن لاحت مَخَايِلُهُ ... وغاب فى طيِّهِ البُهتانُ والفَنَدُ
إن أرْجَفوا فضلالٌ ما نموجُ بهِ ... كم يضحكُ اليمُّ إن أرْغَى به الزَّبَدُ

***

دَعِ المُفَنِّدَ يَعمَهْ فى غَوَايتهِ ... فليس يَرْفعُ إلا الواحدُ الصَّمَدُ
إنْ يَكتبِ اللهُ للإنسانِ مَكرُمَةً ... لا يمحُها الخلقُ بل لا يَطْوِها الأَمَدُ
خُذِ الخلودَ نقيًّا ما به دَخَلٌ ... وَخَلِّ هذا الورى يذهب به الحسَدُ

***

يا بانِيَ المجدِ لم تَضْعُفْ دعائمُهُ ... كلٌّ عَلَى ما بنيتَ اليومَ مُعتمِدُ
سرْ فى لِواءِ الهدى جَذلانَ مُغتبطاً ... فالقومُ قومُكَ ما حادوا ولا رَقَدُوا
قد صَفَّقت لَبُوَاتُ العُرْبِ شِبْلَتَهَا ... وحدَّدَ النَّابَ فى عِرِّيسهِ الأَسَدُ

« الوصل » — أنور العطار

صـــلاة شاعر !

وقال: أُصلِّى، قلتُ: صلِّ جماعةً ... لنعرضَ قبل الحشر بين يدَىْ ربى
ورتلْ من القرآن سورة يوسف!! ... أُرتِّلْ - كما شاء الهوى - آية الحبّ

وحى صــــورة

بقيةٌ من صِبا (حمدى) أشاهدها ... فأسألُ الدهر عنها كيف أبقاها
كأنَّها نفحة للحسن خالدة ... عزّت على الدهر أن يمحو محيَّاها

(المطرية) — عبد الله حبيب

أقـــــوام بادوا

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مفتاح القصيدة

جعلوا لطبع اللؤم كل قداسة ... وتحرزوا من سنة المختار

المختار هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل من نبذ سنة الله ورسوله لابد أن يصير إلى ما هو موصوف فى هذه القصيدة من الصفات ؛ ونعنى بالنبذ نبذ القلب وإن لم ينبذ اللسان ، ولا نعنى أحداً بالذات وإنما هى صفات يعرف كل منصف منها أنها شائعة حيث الاضمحلال والبوار

القصيدة

تركوا اللباب وشاقهم ماشانهم ... من بهرج فى مطلب غرار
عاشوا عبيد كلامهم لم يدلفوا ... من خلفه لحقائق الأفكار
جعلوا حطام اللؤم أعلى مكسباً ... وأعز محمــــدة ليوم فخار
يخفون أوزار النفوس بمنطق ... فيهم فاضح خافقَ الأوزار
حسبوا اغتياب الغائبين مطهرًا ... لنفوسهم من خزية أو عار
كل يغار من الإجادة جهده ... مثل النساء تغار كل مغار[1]
يحكى عظيمهم الحقير سفالة ... متكثراً بدناءة الأنصار
يخشى البرئ قضاءهم من خطة ... لم تعفِ ناساً من هوى الأصهار
العــدل فيهم أجر كل مملق ... جعل النفاق عصابة الأبصار
كل يعاقب من يريد أليفه ... ضراً له لا الكره للاشرار
الكذب عجز فيهمُ وخساسة ... والصدق عبد مزدرًى متوارى
ندم المجيــد على إجادة قوله ... أو فعله من ضيعة وضرار
الضيم مايجزى اللئامُ مُجوِّداً ... فيصون كلٌّ عجزه لفخار
سبقٌ بمضمار الحياة يحوزه ... مُتخلِّفٌ بالغش فى المضمار
وتفرقوا إلاَّ لدى التهويش والـــتضليل فهو مؤلف الدُّعَّار
وتخالهم حشرات روث مالهم ... إلا به حظ من الإكثار
وكأن كل إجادة قد دهورت ... من عقلهم فى بؤرة الأوضار
فكأنما أذهانهم بالوعة ... أخفت نفيس الدر فى الأغوار
كل يلوذ بأثرة ويخالها الـ ... إيثار بئس مزيف الإيثار

(١) تغار النساء فى أمور الجمال واللباس ، أما ضعاف العقول من ذوى النفوس السفة فتغار من كل إجادة فى القول والعمل ، وهذا أعظم أسباب تأخر الأمم لأنهم يحاربون كل مسببات التقدم ، ويهذر من يقول إنها لا تهزم فى أماكن الانحطاط

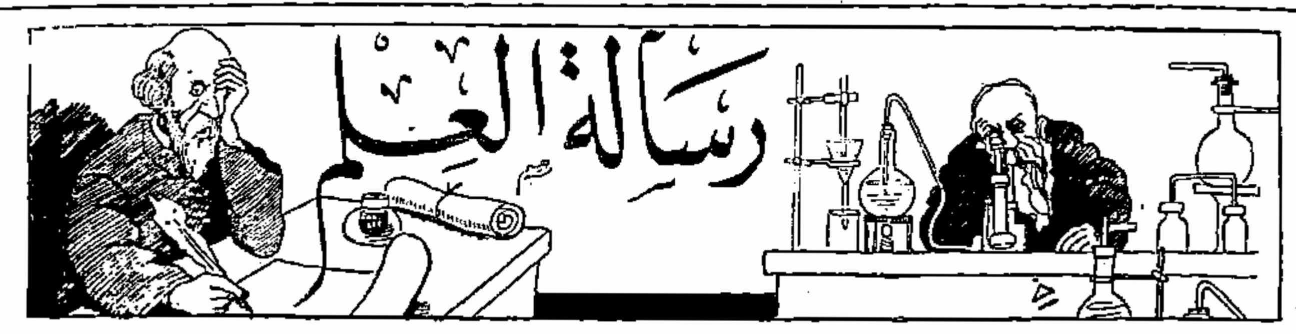
فعاله ومقاله وسكوته … للؤم لا فضلاً وحسن جوار
دأبوا على إخفاء حق مالهم … في حجبه من مكسب ونضار
لؤم لعمرك لا مدى لصياله … وضؤولة تحدو لسفل قرار
الطيش أغلب للتأمل فيهم … حتى لدى العظماء والأخيار
سبق اللسان حصاتهم فكأنما … سكر العقار لهم بغير عقار(١)
رانت على مهجاتهم وقلوبهم … وعلى الحجا والسمع والابصار
شيم تُوَرَّثُ حقبة عن حقبة … كتخلف الأرجاس في الأنهار
أو ما دهى أوصال جسم من ضنى … يمضي ويترك باقي الآثار
جعلوا لطبع اللؤم كل قداسة … وتحرزوا من سنة المختار(٢)
هات المربّي للكبار ولا تقل … يا أين مُعْوِزَ رشده لصغار
هيهات يصلح نشء قوم لم يجد … خُلق الكبار يضيء مثل منار
عدوى الضؤولة والخساسة فيهمُ … عدوى الوباء تسير كل مسار
قوم إذا ابتدروا السباب رأيتهم … يطلون موضع عُرِّهم بالقار(٣)
متعاظمين على نجاسة أنفس … نتجت نتاج الدود في الأقذار
ستر الخسيس خساسة بخساسة … في أنفس الأعوان والأنصار
متعظما يبدو كريماً سامياً … متحلياً بفضائل الأطهار
وترى الوقار ولا وقار وإنما … أخفوا دعارة أنفس بوقار
ودعوا إلى الإصلاح دعوة مائق … يسعى إلى الأرباح سعي تجار
هم يبتغون الجاه إنْ لم يبتغوا … مالا بدعوة مصلح ثرثار
لم تدرِ وَحْيَ المصلحين حصاتهم … فتشبثوا بزوائف الأفكار
صارت وسائل عيشهم ما غاله … من طبع لؤم سائق لبوار
فقد الحياء صغارُهم من ضيعة … فغدوا كبار الفخر غير كبار
صنعوا الأذى من غير ما سبب ولا … يؤذي لغير القوت وحش ضاري
ضلت غرائز شرهم عن أصلها … في صون عيش أو لدفع ضرار
ففدت دناءة أنفس وخساسة … كيداً بلا كسب ولا أوطار
وحديثهم كالحك يهتك عرضهم … فأخو السفاهة منه كاس عاري
العدل ما وهب السمير سميره … والرأي للأوشاب والأغمار

جرأت صعاليك على ما لم يكن … في فهمهم فقضوا بغير تمارى
فوضى لعمرك لا صلاح لشأنها … كيف الصلاح لأمر هاوٍ هاري
عادوا الذكاء خساسة فكأنما … نبذ الذبالة في الظلام الساري
إلا الدعاوى الباطلات فإنها … عادت كعود مزيف الدينار(١)
سل صفحة التاريخ كم قوم به … أجراه مجرى الدهر في مضمار
أقوام أدهار مضت بعض لها … ذكرى وبعض ما لها من داري
قد أبدلوا طبع السفال بأنفس … من طبعها المتصاعد السوَّار
صاروا إذا غضبوا وإنْ سُرُّوا وإن … درجوا لأمر ثالث بمدار
يتمرغون مجانة فنفوسهم … وجسومهم كمزابل الأوزار(٢)
كتمرغ الفلوك دغدغ جلده … عض من البرغوث في الأقذار(٣)
وصموا الشباب ولم يكن من طبعه … خلق اللئيم العاجز الغدار
إن الشباب مروءة وسذاجة … وترفع ينبو عن الأوضار
تخذوا السفال مِجَنَّهم ليصونهم … من صولة الغلاّب والمغوار
فغدا السفال سعادة ومسرّة … عبث الخنا ومجانة الفجار
نبذوا الحياء وكيف ترجو أمة … للنائبات مجانة العهار
قد قيل في فقد الحياء رجولة … فقد الحياء أنوثة الدعار
طبع المجانة عم حتى خلته … كيداً يحاك عليهم بسرار
أم وُرِّثُوهُ عن الجدود غنيمة … يطفو الذليل بها على الأقدار
ويذلّ من عنت الحياة وضيمها … بسعادة المجان والفجار
وتكايدوا كيد العبيد ولم يكن … كتنابذ بطبائع الأحرار
واستمرأوا مرعى الغباوة والخنا … إلْفَ السجون لطول عهد إسار
هزموا الدهور الغازيات بهزلهم … فمضت وظلوا رهن عقر الدار
فإذا الدهور جديدة غلاّبة … وإذا اللئام فريسة الأدهار
درجوا على درج الحياة إلى الردى … من بعد جهل راقهم وصغار

عبد الرحمن شكري

(١) الحصاة العقل والرأي
(٢) أخلاق اللؤم لم تعدم نصيراً يبررها من مذاهب الفلسفة الحديثة فضلا وإنما هو اللؤم الذي يبرر اللؤم بالفلسفة
(٣) العر هو الجرب والقار هو الزفت

(١) العملة المزيفة تطرد العملة الصحيحة من السوق كما يعرف الاقتصاديون وكذلك الذكاء المزيف كثيراً ما يطرد الذكاء الصحيح من سوق الحياة
(٢) مزابل جمع مزبلة
(٣) الفلوك هو الفقير المعدم



ما بعـــد الطبيعـــة

NETAPHYSIQUE

الروح L, âme

للسيد محمد حسن البقاعي

— ٣ —

لقد بحثنا فى الفصلين السابقين عن المادة والحياة ، وأتينا على ذكر النظريات والنتائج التى وصل إليها الفلاسفة على اختلاف آرائهم ، وتعدد مذاهبهم . ولا يسعنا الآن إلا أن نقول : إن نتائج تلك الأبحاث والبراهين والاعتراضات التى أثارها الفلاسفة للوصول إلى كنه المادة وحقيقة الحياة ، لم توصل العقل البشرى إلى نتيجة حاسمة ، بل لا تزال الصعوبات قائمة . ولكننا نظن ، أن الله سبحانه وتعالى سوف لا يعدم البشرية من نور مفاجىء يرسله إلى عقل بعض الفلاسفة الجادّين فى الوصول إلى الحقيقة النيرة فى هذه الأبحاث ؛ فيكشف اللثام عن تلك المسائل التى لم تتعدّ حيز الفرض والاعتراض ، ويأخذ بيد العقل البشرى إلى شاطىء السلامة ، فيخرجه من الظلمات إلى النور . وها نحن مقدمون على البحث فى الروح فنقول :

إن البحث فى الروح لم يكن نصيبه أكثر من نصيب البحث فى الحياة ؛ فخلاصته ما شغل عقول الفلاسفة من معرفة حقيقة الروح وماهيتها هو إقرارهم — إقراراً ضمنياً — بعجز العقل البشرى عن سبر غورها ، وقرع باب حقيقتها . فإن الروح هى من أمر الله ، فكيف يتأتى لعقل قاصر إدراك ماهية أمر الله تعالى — وهو لم يستطع إدراك الأشياء البسيطة بالنسبة إلى الروح مثل المادة والحياة

وسنأتى الآن على ذكر النظريات التى وضعها العلماء والفلاسفة الذين عالجوا البحث فى الروح وطمحوا فى الوصول إلى حل نهائى معقول ؛ ولكنهم — ويا للأسف — لم يصيبوا غرضهم المقصود . فالبحث فى الروح إما أن يكون عن طريق الرأى العام والحس السليم الذى يقرر أن الروح والجسد مختلفان فى طبيعتهما : ويضع الروح فوق الجسد أى إنه يقرر : أن الحياة النفسية فوق الحياة الجسدية ، ويعتبر الروح مبدءاً معنوياً يدير الجسد .

وإما عن طريق آراء الفلاسفة والبحاثين التى يمكن تقسيمها مبدئياً إلى قسمين :

١ — نظرية الماديين Le matèrialisme

٢ — نظرية الروحيين Le spiritualisme

أما الماديون فيقولون : (لا يجوز أن نقبل أن الروح والجسد مختلفان بطبيعتهما ، أى لا يمكننا القول بأنهما عنصران بل عنصر واحد) فهى إذن نظرية توحيد لا نظرية تثنية(١) وهى تجعل النفس خاضعة للعناصر المادية التى فى الجسد . وهم يستندون على طائفة من الأدلة التى يمكن أن تعتبر فزيولوجية وهى :

١ — إن ما توصل إليه الفلاسفة من تعيين مناطق الكلام والرؤية والنطق فى الدماغ يثبت لنا أن كثيراً من الأمراض العصبية تولد بذاتها اختلافات نفسية واختلافات فكرية .

٢ — إن الدورة الدموية فى الدماغ تزداد أثناء التفكير . وقد ذكر الدكتور جميل صليبا (٢) أن العالم الايطالى (موسو) شاهد أدمغة أشخاص أصيبوا بمرض فى الجمجمة فرأى من وراء القحف أن العمل الذهنى والاضطراب النفسى والأحلام كل ذلك يبعث على إزدياد ضغط الدم فى الدماغ ؛ حتى لقد فكر فى إثبات ذلك بتجربة محسوسة فصنع ميزاناً كبيراً على صورة منضدة يمكن أن ينام عليها الشخص ؛ فكلما أجهد الشخص النائم فكره رجحت جهة الرأس من الميزان لانصباب

(١) نظرية التثنية : هى القائلة بأن الروح من طبيعة تختلف عن طبيعة الجسد وأهم واضعيها هو (لبنيز)

(٢) كتاب علم النفس للدكتور جميل صليبا صفحة (٧١)

الدم عليها . فيستنتج من ذلك أن الحياة الجسدية هي المؤثر الأول على الحياة النفسية

٣ — نرى في علم التشريح أن ارتقاء الجملة العصبية متناسب مع ارتقاء الحوادث النفسية . فكلما تكاملت الجملة العصبية تكاملت الحوادث النفسية؛ فالأفاعيل الفيزيولوجية إذن ترافق الأفاعيل النفسية

٤ — إن التأثير الحاصل من الجسد في النفس كتأثير الصحة والمرض والكبر في النفس برهن على اتحاد الجسد والنفس في الماهية

٥ — لقد بيّنتْ مباحث علماء (البسيكوفيزيولوجيا) — بالرغم من كونها ابتدائية أولية — أن هناك قوانين تربط الحوادث النفسية بالحوادث المادية ، فيقول (فيخنر) : إن النفس من محصول الجسد ، ولكن الشعور في هذه النظرية ليس إلا عرضاً زائلاً كالنور وتأثيره في حركة القطار ... فلو عرفنا أحوال (لوتر Luther) الفيزيولوجية فهل نستطيع أن نكتشف الأسباب التي دفعته للقيام على البابا ؟ الجواب على هذا السؤال بحسب هذه النظرية التي ليست إلا نظرية الشعور الملحق (Epiphènonèmisme) هو بلا شك (كلمة نعم !) . أما القول في مناقشة هذه النظرية فيتلخص في أربع فقرات :

١ — نستطيع أن نقول عن هذه النظرية إنها لا تزال في عالم الخيال؛ فقد أخطأت باعتبارها أن الشروط الضرورية في الفكر هي المادة

٢ — إذا أنعمنا النظر في هذه النظرية وجدناها لا توضح الشعور بل تعتبره حادثة زائدة لا أثر لها في الحوادث النفسية ؛ على أننا لا ننكر اتصال الجسد بالروح ؛ ولكن هؤلاء الماديين تجاوزوا هذه الحدود ، فهم يعتبرون الأمور النفسية ناشئة عن الجسد بينما نجد بينهما موازاة فقط ؛ ويقررون أن الشعور ناشئ عن الحركة ، مع أن بينهما فرجة في الحقيقة . ولو سلّمنا أن الشعور حادثة عرضية فكيف يمكن إيضاح ارتقائه على ممرّ العصور وتكامله تكاملاً تدريجياً ؟ ألم يقرر الفيزيولوجيون أن العضو الذي لا فائدة منه يزول في التطور ؟ فكيف بنا ونحن نراه يرتقي ويتكامل عوضاً عن أن يضمحل ويتلاشى ! إذن لا بد أن يكون حادثة من حوادث النفس لا ... بل هو ذلك الحدْسُ النفسي الذي نطلع به على حوادثنا النفسية

٣ — إنهم ينكرون تأثير الحوادث الروحية (النفسية) ولا ينكرون العكس مع أننا نعلم أن للفكر والعاطفة وغيرهما من الحياة الانفعالية تأثيراً بيناً في الجسد . وقد وضع الفيلسوف (وليام جمس W. James) نظرية يدعم بها رأي القائلين بتأثير النفس في الجسد فقال : (لا يمكن أن نقبل أن الجسد يؤثر في النفس ونترك تأثير النفس في الأخير) لأننا نرى أن الشخص عند ما يبكي لا يكون بكاؤه فجأة بل لا بد من أن يحزن أولاً ثم يبكي ؛ إذن لا يمكن للمرء إهمال الفكرة . وكثيراً ما استغرق الانسان في فكر من الأفكار ، فأنساه استغراقه هذا ألماً من آلامه المادية . فالرغائب والأهواء تلعب دوراً هاماً في الجسد وتسبب حركته ، وهذا كله كاف لدحض حجة الماديين التي يمكن أن نعتبر حجة بتراء

٤ — إننا نرى أن الحاضر مثقل بالماضي ، وهو يهيئ للمستقبل فتجمع آثار الماضي في الحاضر . إذن فالحاضر والماضي متصلان ؛ واتصالهما هذا يؤول إلى القول بأن كل حالة من أحوال النفس تحوي كل حالات النفس ؛ فالكل موجود في الجزء ، والجزء موجود في الكل ؛ ولكن الحقيقة أن الكل موجود في الكل . وكل هذا مخالف لاعتقاد الماديين بل يستحيل عليهم قبوله ؛ فلا يستطيع الماديون إذن أن يوضحوا أمراً هاماً جداً وهو الحكم والمحاكمة ؛ ولا اتفاق الناس وتبادلهم بالأفكار ؛ بل يقولون إن تبادلهم في الأفكار إنما يكون باتفاقهم في الحوادث الفيزيولوجية ؛ فليست هذه النظرية إلا ضرباً من الخيال فهي نظرية ميتافيزيكية أكثر مما هي عقلية

أما اللاماديون أي الروحيون الذين عارضوا نظريات الماديين فقد قالوا : يجب أن نقبل وجود شيئين مستقلّين عن بعضهما بطبيعتهما ، أي هما مختلفان بمادتهما . وأول مدافع بل أول واضع لهذه النظرية هو أفلاطون الذي يقول : « إن النفس هي أخت المثل العليا الخالدة ، وهي خالدة مثلها ؛ فالنفس إذن محبوسة في الجسد كأنها في حجرة من حجرات هذا الجسد ؛ أي إن النفس كالربان في السفينة يسيّرها ولا يتأثر بما تتأثر به هذه السفينة . وعلى ذلك فالموت هو رجوع النفس إلى أخواتها حيث تسترجع علمها الأبدي الذي نسيته في الجسد » . أما (ديكارت) فهو يعتبر أيضاً أن النفس والجسد من طبيعتين مختلفتين ؛ فماهية النفس هي الفكر ، وماهية الجسد هي الامتداد ؛ فهما إذن غير متجانسين ولا متشاكلين ، بل لكل منهما طبيعة خاصة به . إلا أنه ينكر على أفلاطون قوله بعدم اتصالهما ببعضهما

ونشبيه النفس بربان السفينة الذى لا يتأثر بما تتأثر به السفينة فيقول : « إننى لا أنكر أن لى جسداً يتألم عند ما أشعر بألم ؛ وأحس بالجوع والعطش عند ما يكون بحاجة إلى الأكل والشرب ؛ وإننى لست ساكناً بجسدى كما يسكن الرُّبان فى السفينة بل أنا أكثر من ذلك ؛ أنا متصل بجسدى أكثر من اتحاد الربان فى السفينة ، ولو كنتُ مثلة لكنت إذا جُرحت لم أتألم ، بل على الأقل كنت أرى جرحاً فقط دون أن أشعر بألم ، فأنا إذن عبارة عن شخص مفكر »

فديكارت إذن يقول بتأثير الجسد فى النفس ويقول : « إن الحركة لا تتغير » أى لا تزيد كية الحركة فى العالم . وهو يصرح بقبوله لفكرة العلاقة بين الجسد والنفس ، ولكنه يوضح هذه العلاقة بقوله : « إن كلا من — الروح والجسد يؤثر فى الآخر بمعونة الإله » . ولقد اعتبر بعض الفلاسفة أن هذا الإيضاح مبهم وقالوا : إن إيضاح تلاميذ (ديكارت) أتم وأوسع من إيضاح (ديكارت) نفسه . فتلميذه (ماليبرانش) الذى وضع نظرية الأسباب المصادفة — أى العلل الاتفاقية — يقبل كل أقوال أستاذه ويشعر بالصعوبة فى اتحاد الجسد فى النفس وكيفيته وأسبابه ؛ ولكنه يحل ذلك بشرح مبتكر ، فيقول : « إننى أرى أن الروح لا تؤثر فى الجسد والجسد لا يؤثر فيها ، فمن الذى يؤثر إذن ... ؟ لا شك أن الإله وحده هو الذى يؤثر . مثال ذلك : عند ما تحترق يدى فلا تستطيع نفسى أن تحدث فىّ الألم بل الإله هو وحده الذى يحدث فىّ الألم » . فمن ذلك ترى أن (ديكارت) و (ماليبرانش) قد فتحا فى حل مسألة الروح فتحاً جديداً ؛ فهما بتعليلهما هذا يقرّان بالعجز عن إدراك حقيقة اتحاد الروح بالجسد . وليس هذا إلا رضوخاً للحق واعترافاً بالواقع ؛ فيجب عدم الاكتراث باعتراضات بعض الفلاسفة المتمنتين أو الملحدين على الأصح ، فهم يقولون : « يؤخذ على ديكارت إسناده كل فعل إلى الإله ، وتوقفه على إرادته ومعونته ؛ فبذلك يحذف كل فاعلية للجوهر اللامتناهى ، ويجعل الإله كعامل من العمال غير كامل لأنه صنع آلة لا تمشى إلا إذا كان هو موجوداً فيها »

فمناقشة هذا الاعتراض تتلخص بقولنا : ليس هذا الاعتراض إلا كلمة حق أريد بها باطل . ولنفرض أن للجوهر فاعلية ، فمن أوجد هذه الفاعلية ؟ ومن أوجد الجوهر ؟ ومن هو مرتّب ومنسق هذا النظام فى عالم الكون والفساد ... ؟ هل يستطيع هؤلاء المعارضون المنكرون للقوة الإلهية أن يجيبوا على هذه الأسئلة بأن المؤثر والفاعل الأول لذلك هو غير الله عز وجل ؟ هبهم أجابوا بذلك وقالوا : إن الطبيعة هى الفاعلة ، فما هى هذه الطبيعة وممّ تتركب ؟ وما هو مبلغ قوتها واقتدارها ؟ . لا شك أنهم يقفون حيارى تجاه هذا الأمر ولا يسعهم إلا الرجوع إلى القدرة الإلهية ...

ولقد وضع (سبينوزا Spinoza) نظرية جعل فيها الامتداد والفكر جوهراً واحداً وقال إنه جوهر الإله ؛ بل قال إن كل الجواهر كالروح والجسد هى أعراضٌ لجوهر الإله . فهذه النظرية تسمى بالنظرية الحلولية Le panthèisme ؛ فهو ينتقل من مذهب التثنية إلى مذهبٍ حلولىٍ واحدٍ مُوَحدٍ لجميع الجواهر . وخلاصة هذا المذهب هى : لا يوجد غير الإله ؛ وكل ما سواه هو أعراضٌ وصفاتٌ له ؛ فالجواهر إذن هى لا نهاية فى لا نهاية ؛ ولكننا لا نعرف منها إلا صفتين فقط وهما : الامتداد والفكر لننظر إلى العالم المحسوس فنرى لوناً وصوتاً وحركة ، وكل هذه هى عبارة عن أحوالٍ وهى متناهية ، إلا أن عددها غير متناهٍ ؛ فالفكر صفة الإله وأحواله غير المتناهية كالرغائب والذكريات ... فأحوال الامتداد الإلهى هى الأجسام ؛ وأحوال الفكر الإلهى هى النفوس وعلى ذلك فالعالم والإله شىء واحد . ويقسم هذا المذهب الطبيعة إلى قسمين :

١ — الطبيعة الطابعة La nature naturante

٢ — الطبيعة المطبوعة La nature naturée

فالطبيعة الطابعة هى مجموع العلل الثابتة الدائمة الموجودة فى جوهر الإله ؛ والمطبوعة هى مجموع الأعراض المتغيرة المتبدلة التى لا تستقر على حال . فبحسب هذه النظرية يكون الانسان مركباً من مجموع نوعين من الأحوال الإلهية ؛ وهما الفكر والجسد ولا يمكن أن يعتبر جوهراً ؛ وعلى ذلك فلا يوجد عقل ولا إرادة بل إرادات ، فمجموع الأحوال النفسية يوازيها مجموع الأحوال الجسدية ، فهى تشبه نظرية الموازاة Le parallèlisme فهذه النظرية لا تقبل تأثير النفس فى الجسد ولا العكس بل تقول إن بينهما موازاة فقط ؛ وهى تنكر الحرية ؛ واعتراضنا عليها



الوحـــدة والجريمة

للكاتب الانكليزى القدير لورد ليتون

للأستاذ أبو جاويد أكمل

ولدت انجليزياً ولكنى قضيت الأيام الأولى من عمرى فى بلدة نائية أجنبية، وليس لى إخوة ولا أخوات، وقد توفيت والدتى وأنا فى المهد فوجدت فى والدى الرفيق والمعلم والصديق، وقد كان هذا الوالد الأخ الأصغر لأسرة شريفة وبيت عريق. أما ما حدا به إلى ترك بلدته وأصدقائه وتجنب المجتمعات والإقامة ببلدة كالصخرة فقصة قائمة بذاتها لا دخل لها بقصتى هذه

قلت إن والدى أقام ببلدة كالصخرة لأن بلدتنا لم تكن فى الواقع إلا كذلك: قفار حالكة عرضة للسافيات، وأشجار عجزت عن النمو، وعشب جاف، وتجاويف لم تهتد إليها النجوم ولم يعرف ضوء الشمس مكانها إلا من بعض فجوات بالصخور التى تعلوها، تجتازها مياه قائمة مغبرة ترغى وتزبد أثناء سيرها فى طريقها الصخرى. هضاب غطتها الثلوج المتراكمة تأوى إليها الطيور الجارحة وينبعث منها صوتها المرعب المخيف إلى عنان السماء التى أبت أن تتدثر بالسحب على ما بها من شحوب وخوف وهرم. كل هذا ينم على حال تلك البلدة التى سلخت بها الأيام الأولى من حياتى. أما مناخها فلم يغير من المناظر التى تحيط بمنزلى إلا قليلاً وإن كان فى بعض الأحياء الأخرى يحل صيفها المفاجىء الذى لا يعقبه خريف بشهوره الثلاثة لطول شتائها؛ وربما فى فترات قصيرة الأمد يذوب الثلج فى الأودية وتفيض المياه ويظهر نبات أصفر غريب يفتر ثغره عن بسمات خبيثة موجهة لبعض أجزاء من هذه الصخرة العالية لأمثال هذه المناظر التافهة من تقلبات الفصول. قضيت أيام حياتى عاماً

هو نفس الاعتراض على النظرية المادية السابق

أما (ليبنز Lèibniz)؛ فيقول إن مذهب الحلول هو مذهب فاسد لا يستند إلى مبدأ ديكارت. ويجب أن تكون هذه المبادئ نفسها فاسدة لأنه لا يمكن أن ينتج الفاسد من الصحيح، فهو إذن ينتقد مبدأ ديكارت. وقد وضع نظرية تدعى (نظرية الموناد Monàde) التى لا تقبل أن الجوهر هو إمتداد بل هو فى القوة. فالروح والجسد من طبيعة واحدة؛ وبما أن النفس مركبة من موناد واحد فالانعكاسات التى تنعكس فيها تظهر جلية، بعكس الجسد المركب من مجموع الموناد. فالانعكاسات فيه مختلطة وكل موناد ينعكس على الآخر، فموناد النفس ينعكس على الجسد؛ وموناد الجسد ينعكس فى موناد النفس؛ على أن ليبنز لا يستطيع أن يقبل كيف يؤثر جسم فى جسم فيقول: «أخذت أتأمل فى مسألة إتحاد الروح بالجسد، فلم أجد واسطة تدخل بعض أشياء فى النفس، وبالعكس لم أدرك أن جوهراً يؤثر فى جوهر؛ فلا أستطيع قبول تأثير الجواهر بل أقول: لا يؤثر إلا الاله» ومن هنا نشأت نظريته المسماة (نظرية التناسق Harmonie pèctablie) التى يقول فيها: إن كل موناد هو عبارة عن عالم صغير يعكس كل العوالم الأخرى ولكن بإرادة الاله وحده. ويقول أيضاً: إن الاله خلق النفس أو أى وحدة أخرى حقيقية؛ بصورة أن كل شكل يتولد داخلها بعضويته بالنسبة إليها: وبصورة متوافقة تماماً مع الأشياء الخارجية؛ وهذا التوافق مراد منه — أى من قبل الاله — ولعمرى إن نظريات ليبنز لهى خلاصة ما توصل إليه جمهور الفلاسفة فى أمر الروح؛ ولقد انكشفت له الحجب عن الحقيقة، وهو الفيلسوف الأوحد الذى يكاد يقترب من الحقيقة الناصعة

محمد حسن البقاعى

فعاماً . وكان والدى مغرماً بالعلوم الطبيعية ومشاركاً فى باقى العلوم فدرس لى كل ما عنده . وكان للطبيعة الفضل فى سد النقص بما أوحت إلى قلبي من دروس عميقة صامتة وهى تكشر عن نابها وتعبس . علمت قدمى الركل وذراعى اللكم ونفثت فى رغباتى روح الحياة وألهمت طباعي الجد لا الهزل . علمتني كيف أعانقها وإن كان قوامها معوجاً وشكلها غير مغر . أفر من سواها وأهرب من مصادقة رجل وأخشى من ابتسامة أنثى . أهرب من بكاء الطفولة وأخشى من التقيد والآمال وملذات الوجود كما أخشى من اللمنة والعذاب ؛ ومع ذلك كانت لى فى هـذه الصخرة العابسة وتحت هذه السماء الشـاحبة متعات لا يهتدى إلى كنهها أهل الحضر الذين يجدون لذتهم في أريج العطر وعبيق الورد ، فما هذه المتعات ؟ إن لها من المتنوعات والأشكال المختلفة عشرات الألوف كما لها من أفياء السرور ، ولـكن ليس لها من الأسماء المتداولة إلا اسم واحد ، فما هي هذه المتعات ؟ هى «الوحدة»

مات والدى وأنا فى الثامنة عشرة فانتقلت إلى كنف عمى وأزمعت الرحيل إلى لندن فوصلتها نحيفاً عبوساً مفتول الساعد قوى البنية ؛ بيد أنى فى نظر من حولى كنت وحشاً فى هيئتى وطباعى . كان لهم أن يضحكوا منى ، ولـكنى أرهبتهم بصورتى ؛ وكان لهم أن يغيروا من طبعى ، ولـكنى أثرت فيهم وألقيت على بهجتهم رهبة فكانوا وجلين منى وإن لم أتكلم إلا نادراً ولم أجالسهم إلا مجلس الغريب الصامت المنقاد . ما من أحد منهم يستطيع معاشرتى ويكون مسروراً أو مرتاحاً . هذا ما شعرت به وقد أبغضهم إذ لم يمنحونى حبهم

مضت ثلاث سنين بلغت فيها سن الرشد ، فطالبت بثروتى واحتقرت الحياة الاجتماعية ، وذبت شوقاً مرة أخرى إلى الوحدة ، فصممت على الرحيل إلى الأراضى النائية الخاليـة من السكان ، تلك الأراضى التى لم يرجع منها زائر يتحدث عنها ممن طوحت بهم الأقدار فى أحضانها

استأذنت عمى وزوجه وأولاده وبدأت الحج فاجتزت الرمال المحرقة ، وقطعت الفيافى الشاسعة ، حتى وصلت إلى غابات أفريقيا الـكثيفة التى لم تطأها قدم ، ولم يشوش صوت إنسان هـذا الجلال المهيب الذى يخيم على وحدتها كما كان يخيم قبل الوجود على العوالم المضطربة . هناك حيث تنمو الفطرة الأزلية وتذبل بغير إزعاج أو تغيير يطرأ عليها من اضطراب ما يحيط بها من العوالم . هناك حيث تنبت البذور أشجاراً تعيش أعماراً لا تحصى ولا تعد ، ثم تتساقط أوراقها ويسطو عليها البلى ويعتريها الفساد ويدركها الفناء . هناك حيث يخطو الزمن المتثاقل لم يشهد تقلباته الهائلة الصامتة إلا أسد شارد ، أو أفعوان جسيم ، يكبر مائة مرة تلك البوا التى يباهى السائحون برؤيتها . هناك تحت الظلال الوارفة التي آوى إليها وقت القيلولة كنت أسمع وقع أقدام كالجند وأصغى إلى وسوسة الأشجار الباسقة وهى تدك وتنهدم ، وأرى من خلال فروع الأشجار الملتفة البهموث عابراً سبيله الوعر وعيناه تتقدان كالجمر وأنيابه البيضاء فى فكه الشرس جاثمة براقة كأعمدة من الصوان تشع فى غار . ذلك هو الوحش الذى جعلت له دون غيره هذه الفدافد موطناً ؛ ذلك هو الوحش الذى لم يتبدل من يوم أن عرفت المياه سبيلها فى الـكون ؛ ذلك هو الوحش الذي لم تبصره عين آدمى غيرى

تسلت فصول الأعوام لم أحصها عدًّا ، إذ لا أنيس يحببها إلىّ ، ولا أثر يترسم من أعمال ابن آدم القذرة ينغصنى فيها . أقول كرت الفصول ونضج شبابى حتى بلغت الرجولة وجلل الشيب مفرق بالثغام ، ولم ألبث أن استولى علىّ ميل دفين لا يقر على حال وناجيت قلبي المذنب أن لابد من نظرة أو عودة إلى عشيرتى

قفلت أطوى الفدافد إلى أن بلغت المدائن فتدثرت بلباس أهلها إذ لم أكن فى البيداء إلا عارى الجسد ، ولما بلغت الثغر أقلتنى سفينة إلى انجلترا كان فيها رجل هو وحده الذى لم يتجنب صداقتي ولم يخش غضبي ، يستولى عليه النزق ، ويملأه الغرور ، ويتيه عجباً كما يختال عادة هؤلاء الذين استوطنوا المدائن ، واتخذوا الـكلام غذاء عقولهم . كان طفيليًّا سخيفاً ونسيجاً قذراً من آراء سافلة ، وكان الرعب الشائن هو الخصلة الفريدة التى لم تفارقها نفسه ، فمحال أن ترهبه أو تسكته أو تهزمه ؛ يتعقبنى دائماً ويلازمنى كظلى ليس لقوة أن تنزعه منى ، وكلما بصرت به شعرت بدوار ، وكان من هؤلاء الطغام المحتقرين الذين ترتعد الفرائص لرؤيتهم

كنت أقاطعه مراراً كلما خاطبنى . ولـكم هممت أن أقبض عليه وأقذف به إلى البحر للحيتان التى كانت تسبح ليل نهار حول السفينة بعيون براقة وأنياب تواقة ، إلا أن نظرات الجميع كانت

متجهة إلينا فكبحت جماح نفسي وعدلت عن ذلك مغمضاً عيني على مضض؛ وكلما فتحتهما ثانية وجدته بجانبي وصوته الأجش يرن في أذني الكارهة سماعه

في ذات ليلة تنبهت من نومي على صياح الرجال وهم يقسمون فأسرعت إلى سطح السفين وكنا قد ارتطمنا بصخرة فيا لروعه منظراً! إنه كان هائلا. فضوء القمر هادىء والبحر على فيروزته نائم. في وسط هذا السكون الصامت الناعم الذي شمل كل شيء امحى أثر ثلثمائة وخمسين نسمة من الوجود. لزمت عزلتي لم أساعد أحداً من المغرقين بل ظللت أنظر، وإذا بصوت كصوت أفعى ينساب إلى أذني فالتفت ورأيت مزعجي وقد انعكس ضوء القمر على وجهه وهو يتمتم كالسكارى وعينه الذابلة الزرقاء تحملق وهو يقول: لا نفترق حتى في هذا المكان

جرى الدم حاراً في عروقي وعزمت على أن أرميه في البحر الذي كان يغمرنا سريعاً، ولكن خيل إلى أن القمر يرمقني كما ترمقني عين السماء ولم أتجاسر على أن أقتله. ولما كنت لا أستطيع البقاء كي أموت مع المغرقين قذفت بنفسي نحو صخرة وقد طاردني حوت فأرهبته، وبعد برهة وجيزة كان لديه القدر الكافي لإشباع نهمه سمعت دوياً فصيحات يأس ممتزجة مزعجة، يأس ثلثمائة وخمسين قلباً سكنت في لحظة. قلت في نفسي وقد داخلني سرور عميق إن صوته لا محالة بين أصواتهم وقد افترقنا. وما وصلت الشاطىء حتى اضطجعت للنوم

وفي صباح اليوم الثاني انفتحت عيناي على أرض أجمل من أحلام الشباب وقد ابتسمت الشمس وأشرقت على أنهار فضية، ومالت الأشجار بثمار أرجوانية عسجدية، وتلألأ كالماس الندى في أرض تحلت بأزهار ذات أريج عبق ممتع، وقد حلقت عشرات الألوف من الطير بأجنحة براقة امتزجت ألوان قزح بها وطارت من على النبات والأشجار وملأت الجو تغريداً من سرورها. البحر يزأر تحت قدمي لا أثر في جبينه اللامع لتأكل سالف؛ أما السماء فكانت تدفىء عروقي بأشعتها الذهبية التي لم تعترضها سحب. استيقظت نشيطاً مرحاً وجست خلال هذا المكان الجديد الذي اهتديت إليه فتسلقت تلا ووجدت أنني في جزيرة صغيرة لا أثر لرجل فيها، فارتاح قلبي وصحت طرباً لما رأيت أني سأكون وحيداً مرة أخرى، ولكني لم أكد أنحدر من التل وأصل إلى نهايته حتى لمحت رجلاً يقترب مني. نظرت إليه فارتاب قلبي ثم دنا مني فإذا بالبغيض المضطهد يقف أمامي بعد أن نجا من الغرق! لقد عاد بتمتمته وعينه البراء.. وما لبث أن طوقني بذراعيه فشعرت بأن أفعى تحتضنني وقال بصوت أجش خشن: مرحى مرحى! سنبقى معاً أيها الصديق

فنظرت إليه وأنا مقطب الجبين لم أتلفظ بكلمة، وكان بجانب الشاطىء غار كبير فقصدته ودخلت فيه وهو يتبعني قائلا: سنعيش في هناء هنا لا نفترق إلى الأبد. فارتعشت شفتي وانقبضت يدي.

قد انتصف اليوم وغلبني الجوع فخرجت واصطدت غزالاً وشويت جزءاً منه على نار من أخشاب عطرية فأخذ الرجل يأكل ويزدرد ويقهقه، وتمنيت لو غص بالعظام. ولما انتهى قال ليس لدينا هنا إلا النذر اليسير من الانشراح، بيد أني لم أزل محافظاً على صمتي، وأخيراً تمدد في ركن من الغار ونام، فنظرت إليه ورأيت نومه عميقاً ثم خرجت ودحرجت حجراً كبيراً عند باب الغار واتخذت سبيلي إلى الجزء المقابل من الجزيرة. وجاء دوري في الضحك ووجدت غاراً آخر وهيأت فراشاً من العشب والأوراق، ومن الأخشاب صنعت منضدة، وتطلعت من فوهة الغار فرأيت البحار العريضة أمامي وقلت الآن سأكون منفرداً. ولما أقبل اليوم الثاني خرجت مرة أخرى واصطدت جدياً وعدت به وجهزته كما سبق. ولما كنت غير جائع لم أستطع تناول الطعام وهمت على وجهي في أنحاء الجزيرة، وعند عودتي كانت الشمس قد غربت فدخلت الغار، فجلست على فراشي؛ ولكن بجوار منضدتي كان الرجل الذي ظننت أني دفنته حياً بالغار الأول. وما إن وقع نظره عليّ حتى ضحك وألقى بالعظمة التي كان ينهشها وقال: آه لقد عولت على أن تعلمني خدعة نادرة، ولكن بالغار نفقاً لم تفطن إليه وقد خرجت منه للبحث عنك، وهذه مسألة هينة، لأن الجزيرة صغيرة، أما وقد تقابلنا فلا فراق بعد

فقلت: قم واتبعني. ففعل، وما تركه من الطعام كان قذى في عيني لأنه مد إليه يده، وأخيراً فكرت أأزرع ليحصد هذا المخلوق؛ وشعرت بقلبي وقد تحجر

صعدت إلى صخرة عالية وقلت: انظر حولك وتطلع إلى هذا الجدول الذي يشطر الجزيرة فستقيم في شطر وأقيم في الآخر. ومن

الحال أن تجمعنا بقعة واحدة أو يضمنا خوان ، فقال : لا يتأتى ذلك إذ ليس فى مقدورى أن أصطاد الغزلان أو أقتنص الجديان . وإذا لم تتعهدني بالغذاء فسأموت جوعاً . قلت : ألا توجد فاكهة وطيور تستطيع اقتناصها ، وسمك يقذف به البحر ؟ فقهقه وقال : لا أهواها كما أحب لحم الجديان والغزلان . فقلت : افهم الآن وانظر إلى هذا الحجر الكائن من الشاطئ الثاني لهذا الجدول . سأترك لك كل يوم عنده جدياً أو غزالاً حتى تنال من الطعام ما تشتهي ، ولكن إذا اجتزت هذا الجدول ودخلت فى ملكي فمن المؤكد أني سأذبحك . نزلت من الصخرة وأرشدت الرجل إلى شاطئ الجدول ، فقال : لا أعرف السباحة ، فحملته على كتفي واجتزت الجدول ووجدت له غاراً وهيأت له فراشاً ومنضدة كما صنعت لنفسي ، ثم تركته ، ولما حاذيت شاطئ الجدول ثانية كدت أطير من الفرح ورفعت صوتي قائلاً : سأكون الآن وحيداً

مر يومان وأنا منفرد ، وفي الثالث خرجت للقنص وكان وقت القيلولة وأعياني التعب حينما عدت ؛ وإذ دخلت مغارتي وجدت الرجل منطرحاً على فراشي وقال : ها ، ها . أنا هنا لقد سئمت الوحدة فى منزلي وجئت لأعيش معك ثانية . فعبست وقطبت ما بين حاجبي وقلت : من المؤكد أني ذابحك . وجذبته من فراشي بذراعي وأخذته فى الهواء الطلق ووقفنا سوياً على الرمال قريباً من البحر العظيم . استولى عليّ الخوف وداخلني ذعر من السكون الشامل الذي يخيم على الوحدة مع أني لا أبالي بالناس لو أحاطوا بنا آلافاً لذبحته أمام أعينهم . وما راعني إلا أننا وحيدان فى الصحراء لا ثالث معنا إلا الله . أرخيت عنان قبضتي ، وقلت له : أقسم لي بأنك لا تضايقني بعد ، وأنك تحافظ على حدود منازلنا ولا تجتازها وأنا أعفو عنك . فقال : لا أستطيع القسم ، وخير لي أن أموت فى الحال من أن أفارق وجه آدمي صبوح ولو كان عدواً لي . ولهذه الكلمات عاودني حنق فطرحته أرضاً ووضعت قدمي على صدره ويدي فى عنقه ، فحاول الخلاص برهة ، ثم كان جثة هامدة . تولاني الخوف على أثر ذلك ؛ ولما نظرت إلى وجهه ظننت أنه عاد إلى الحياة وخيل إلي أن عينه الذابلة الزرقاء ترنو إلي ، وأن ابتسامته الخبيثة لم تفارق شفتيه ، كما أن يديه اللتين كانتا قابضتين على الرمال فى حشرجة الموت امتدتا نحوي فضغطت على صدره مرة أخرى وحفرت حفيراً بجانب الشاطئ وواريته التراب وقلت : صرت الآن وحيداً

هنا تجلت لي المعاني الحقيقية للوحدة والكآبة ولعدم الاستقرار وللعزلة ، فارتعشت وترنح كل عضو من هيكلي الجبار كأني طفل ترتعد من الظلام فرائسه ، ووقف شعر رأسي وتقلصت عضلاتي ، ولم أستطع البقاء فى هذه البقعة دقيقة واحدة ، ولو عاد إلي فيها شبابي . غادرتها هرباً وجبت هذه الجزيرة ، وكلما يممت شطر البحر اصطكت أسناني واشتقت إلى صحراء شاسعة لا نهاية لها أتوارى فيها إلى الأبد

عند الغروب عدت إلى مغارتي وجلست فى زاوية من الفراش وأخفيت وجهي بكلتا الراحتين ، وتوهمت أني أسمع ضوضاء فرفعت بصري . ولعمري لقد رأيت الرجل الذي أجهزت عليه ودفنته مقيماً بالطرف الثاني من الفراش

هناك على بعد ست أقدام مني كان جالساً يشير إلى رأسه وينظر بعين شاحبة ويقهقه . ووليت الأدبار من الغار ودخلت فى غابة واستلقيت ، ولكن هناك على بعد ست أقدام مني كان وجه ذلك الرجل أيضاً

أيقظت شجاعتي وخاطبته ولكن لم يبد جواباً . حاولت القبض عليه فأفلت وكان على بعد ست أقدام ، ووجهه دائماً أمامي

خررت على الأرض ساجداً وغطيت وجهي بأيديها وآليت لا أرفع رأسي حتى يحين الليل وينسدل الظلام

وحينئذ قمت وعدت إلى الغار واضطجعت فى فراشي ، فنام بجانبي الرجل ، فغضبت وحاولت أن آخذ بتلابيبه فلم أتمكن

أخيراً أغمضت جفني ورقد بجانبي . مرت الأيام والحال لا تتغير فى الداخل ولا فى الخارج ، فى المنزل وفى الفراش ، فى القيام وفى الرقاد ، بالليل أو أثناء النهار . هناك فى طرف فراشي وعلى بعد ست أقدام لا أكثر ولا أقل كان الميت الشاحب

وما كدت أنظر إلى الأرض الجميلة والسماء الصافية وإلى هذا الصاحب المخيف حتى قلت : لا أعيش وحيداً بعد ذلك ، فضحك الرجل بملء شدقيه . رست فى النهاية سفين فحييتها وأقلتني وما وطئت قدمي سطحها حتى ظننت أني ربحت من مزعجي ، ولكن سرعان ما رأيته يعتلي سطحها ، واجتهدت عبثاً أن ألقيه في اليم ، ولكنه كان بجانبي دائماً يأكل معي وينام كسابق عهده

وصلت إلى مسقط رأسي واندمجت فى الزحام . شهدت الولائم وسمعت الألحان ، جعلت ثلاثين رجلاً يجالسون معي وظللت أراقبه



تنظيم أوراق البردى المصرية

كانت الحكومة المصرية قد استدعت فى العام الماضى العلامة الأثرى الألمانى الدكتور هوجو إبشر أمين المحفوظات البردية فى متحف برلين ليقوم بإصلاح مجموعة البردى المصرية وتنظيمها . وفى المتحف المصرى مجموعة كبيرة من هذه الوثائق القديمة التى لم تنظم ولم تعرف جميع محتوياتها بعد ؛ وقد قدم الدكتور إبشر إلى مصر فى شهر مايو الماضى وقضى ثلاثة أشهر فى تنظيم المجموعة البردية بالمتحف المصرى ، ولكنه لم يستطع يومئذ أن يتم كل مهمته ، وما زال كثير من الوثائق البردية فى حاجة إلى عنايته

ومن ثم فقد استدعى الدكتور إبشر لاستئناف عمله فى القاهرة مرة أخرى ؛ وقد قدم العلامة إلينا منذ أيام قلائل ليتم تنظيم مجموعة البردى ؛ وسوف ينتهز هذه الفرصة لزيارة البقاع الأثرية التى وجدت فيها مجموعات من البردى ، ولا سيما منطقة بحيرة قارون التى وجدت فيها منذ أعوام أوراق بردية ثمينة تحتوى على شروح كاملة لبعض كتب الفيلسوف مانى ؛ وشروح أخرى لمذهب زرادشت ؛ وقد نقلت هذه المجموعات من مصر سراً إلى برلين ، وتولى الدكتور إبشر تنظيمها وقراءتها ، وكان لظهورها ضجة كبيرة فى جميع الأوساط الأثرية

وقد روت الصحف الألمانية بهذه المناسبة أن الدكتور إبشر سيقوم لجلالة ملك مصر بمهمة خاصة ، وهى إصلاح خريطة قديمة ثمينة لإفريقية كانت ملكاً لمحمد على باشا رأس الأسرة المالكة ، وقد بليت وتآكلت بعض أجزائها ، وكان المغفور له الملك فؤاد يتوق إلى إصلاحها وردها إلى أصلها ؛ وسيقوم الدكتور إبشر بهذه المهمة ، وهو اليوم أشهر علماء الصيانة الأثرية

معرضان للفن الأجنبي فى مصر

نظم فى هذا الأسبوع معرضان للفن الأجنبى بدار الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة ، أحدهما معرض هولندى للتجارة والصناعة ، وقد افتتح فى الخامس من فبراير الجارى ؛ والثانى

ليلاً ونهاراً ، ولكن رفاقى كانوا واحداً وثلاثين وأخيرهم كان أكثرهم ألفة وعشرة

فخاطبت نفسى : أهذا وهم أم هو خداع الحواس ؟ ولا بد أن أستشير الاخصائيين فى هذا الاضطراب لكى أعود إلى الوحدة ؛ دعوت عرافاً ذائع الصيت فى طرد ما علق برأسى من الأوهام واستحلفته أن يكتم السر ورويت له قصتى ، وكان رجلاً جريئاً عالماً فوعدنى الخلاص والنجاة، ثم سألنى مبتسماً: أين هذا الشخص الآن فانى لا أراه ، وإن كان حقاً ما تقول فان حواسى لا تقل إدراكاً عن حواسك ؟ وكان فى خطابه كما يكون الأستاذ مع تلميذه وأنا لا أعارضه ولا أساجله ، وأمرت الخدم أن يهيئوا غرفة ويكسوا أرضها بالرمل . ولما صدعوا بالأمر التمست من طبيبى أن يتبعنى إليها وأحكمت رتاجها، فسألنى: أين الشخص الآن؟ فقلت: إنه على بعد ست أقدام منا . فابتسم الطبيب فأهبت به أن ينظر إلى الأرض وأشرت إلى بقعة منها قائلا له : ما ذا ترى ؟ فارتجف وتعلق بى حتى لا يهوى ثم قال حينما دخلنا : كان الرمل ناعماً ولكنى أرى فى هذه البقعة أثراً لأقدام آدمى ، فضحكت ومشيت مع رفيقى الحى إلى الأمام وقلت له : انظر ماذا يتبعنا كلما تحركنا ، فحاول الطبيب أن يتنفس الصعداء ثم قال : صاحب هذه الأقدام، فصحت به فجأة صيحة اليائس الغضوب : ألا تستطيع أن تدبرنى وهل قضى على ألا أعيش بعد منفرداً ؟ غير أنى رأيت آثار هذا الهالك تخط على الرمل هذه الكلمات :

« لم تخلق الوحدة للمجرمين . الأفكار السيئة رفيقات الساعة ؛ ولكن الأعمال السيئة صديقات إلى قيام الساعة »

أبو مدين أكمل

معرض فرنسي للفنون الجميلة والزخارف الفنية ، وقد افتتح في الثامن من فبراير ، وتفضل صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بافتتاحه بحضور مسيو جان زاي وزير المعارف الفرنسية الذي قدم إلى مصر خصيصاً لذلك ، وعدة من الشخصيات الكبيرة مصرية وأجنبية . وقد بذلت الحكومة الفرنسية في تنسيق هذا المعرض جهوداً عظيمة ، وعرضت فيه مجموعات فنية نادرة من الصور والتحف الفنية الدقيقة استحضرت من فرنسا ؛ وهذا دليل جديد على ما تبديه فرنسا في العهد الأخير من الاهتمام بتوطيد نفوذها الثقافي بمصر بعد أن تطورت الأحوال السياسية والاجتماعية عقب عقد المعاهدة المصرية وإلغاء الامتيازات الأجنبية

ذكرى الفيلسوف شوبنهاور

تحتفل ألمانيا في العشرين من الشهر الجاري بذكرى فيلسوفها العظيم شوبنهاور لمناسبة انقضاء مائة وخمسين عاماً على مولده . وتقام لهذه الذكرى بالأخص حفلات عظيمة في مدينة دانتزيج مسقط رأس الفيلسوف ومدينة فرانكفورت حيث قضى شطراً عظيما من حياته . وستذاع في كل منهما محاضرات وخطب بالراديو عن الفيلسوف الراحل وآثاره وآرائه ، ويقام في كل منهما حفل تذكاري رسمي ، وتوضع أكاليل الزهر التي ترسلها مختلف الهيئات العلمية على قبره في فرانكفورت

وكان مولد الفيلسوف في دانتزيج سنة ١٧٨٨ ، ولكنه لم يلبث بها طويلا فغادرها مع أسرته سنة ١٧٩٣ . وبعد أن قضى حداثة مضطربة ، درس في برلين وجتنجن ، ثم قدم إلى فرانكفورت في سنة ١٨٣١ فاستقر بها حتى وفاته في سنة ١٨٦٠ . وفي سنة ١٩١١ ألفت في ألمانيا جمعية شوبنهاور ، وفي سنة ١٩٢٩ نظمت هذه الجمعية جميع الوثائق والمراجع المتعلقة بحياته وفلسفته ، وأنشأت مكتبة عظيمة نادرة تضم جميع الكتب والشروح المتعلقة بفلسفته

وقد كان شوبنهاور من أعظم فلاسفة العصر الحديث ، وفلسفته تمتاز بطابع واضح من التشاؤم ، وأعظم كتبه هو كتاب « العالم كإرادة وفكرة » ، وفيه يبسط أعظم وأقوى آرائه ، ونظرياته الفلسفية ، وقد ترجم إلى معظم اللغات الحية . وله عدة كتب ورسائل فلسفية أخرى ، مثل كتاب « الإرادة في الطبيعة » وكتاب « الأساس الرباعي لمبدأ العقل الكافي » ورسالة في « الرؤيا واللون » وغيرها ، بيد أنها دون كتابه الجامع قوة وطرافة . وقد تأثر شوبنهاور في فلسفته بأفلاطون وكانت تأثيراً كبيراً ؛ بيد أنه يعتبر مؤسس مذهب فلسفي جديد في التشاؤم . وقد كان لتفكيره ونظرياته أثر كبير في تطور الفلسفة الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر

من مكتشف أستراليا

ثار في الأسابيع الأخيرة جدل على تاريخي بين الصحافتين الانكليزية والهولندية حول المكتشف الحقيقي للقارة الأسترالية وذلك لمناسبة الاحتفالات التي أقيمت أخيراً في أستراليا لمناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على تأسيس أول مستعمرة أوربية في خليج « بوتاني » ، والمعروف أن هنالك رأيين في هذا الموضوع : الأول النظرية الهولندية ، وهي ترجع الفضل في اكتشاف أستراليا إلى البحارة الهولنديين في أواخر القرن السابع عشر ، والثاني نظرية بعض المؤرخين الانكليز وهي ترجع الفضل في هذا الاكتشاف إلى الرحالة الانكليزي الكبتين كوك بين سنتي ١٧٧٦ و ١٧٧٩ . والواقع أن الرأي الأول أقوى وأرجح ، والبحارة الهولنديون هم أول من أطلق اسم أستراليا على هذه القارة ، وظهر هذا الاسم لأول مرة في كتاب ظهر في امستردام سنة ١٥٩٧ وسميت فيه هذه الأرض الجنوبية Terra Australis وقد كان البحارة الهولنديون يبحثون قبل ذلك عن قارة مجهولة في الجنوب ، وهم الذين وضعوا أول تحديد علمي لموقعها

وقد بسط هذه النظرية العلامة المؤرخ الهولندي هيربس في كتابه ، فذكر أن الرحالة الهولندي دوفكن اكتشف جزءاً من خليج كربنتاريا في سنة ١٦٠٥ ؛ وفي سنة ١٦١٦ سار الرحالة ديرك هارتوجس إلى المياه الجنوبية في السفينة الهولندية اندراخت ووصل حتى خليج شارك . وتدل وثائق العصر على أن هذا الرحالة هو أول أوربي وضع قدمه في أستراليا

وعلى ذلك فانه من الخطأ أن ينسب فضل اكتشاف القارة الجنوبية إلى الكبتين كوك الذي لم يزر هذه المياه إلا بعد ذلك بنحو مائة وخمسين عاماً . على أن كثيراً من المؤرخين الانكليز يفضل هذه النظرية التي يستند إليها استعمار انكلترا للقارة الأوسترالية ، وما زال هذا الرأي يلقى على طلبة المدارس ؛ وقد كررته بعض الصحف الانكليزية في المناسبة الأخيرة ؛ أما الكبتين كوك فان فضله لا ينكر في اكتشاف الجزائر الأقيانوسية في هذه المياه

مخطوط جديد للشاعر بيرون

لمناسبة الاحتفالات التى أقيمت أخيراً فى أثينا تخليداً للذكرى المائة والخمسين لمولد الشاعر الإنكليزى الأشهر (لورد بيرون) ، والتى أشارت إليها الرسالة فى عددها الماضى ، أعلن الأستاذ سقراط كوجياس الأكاديمية الأثينية غداة الاحتفال بأنه عثر فى مخطوطات المكتبة الوطنية اليونانية على مخطوط جديد للشاعر الكبير هو عبارة عن القسم الأول لقصيدة « تشايلد هارولد » ؛ وفى ظهر المخطوط مذكرة بخط الشاعر عن إحدى قرى جزيرة دلفى . ومسودة القصيدة ملأى بالتصحيحات والتعديلات التى لم تظهر فيما ظهر من طبعات هذه القصيدة الشهيرة . ولم يعرف بعد كيف وجد هذا المخطوط فى المكتبة الوطنية ، ولكن وجد فى ذيله بالإنكليزية ما ترجمته : « مهدى إلى فرند كالادان المعجب باللورد بيرون ، من أخته أوجستالاى » أعنى أخت الشاعر ؛ ووجد هامش آخر فيه : إن المخطوط كتب بيد الشاعر ، وأهدى منه إلى كالادان هذا ، وهو أحد أشراف أثينا فى هذا العصر ومن هواة الخطوط الأثرية

موسم فاجنر فى لايبزج

فى أنباء ألمانيا الأخيرة أنه تبدأ منذ ١٣ فبراير الجارى فى مدينة لايبزج حفلات الموسيقى الشهير ڤاجنر ، وتمثل فيها أوبراته الخالدة كلها ، ومنها تآليف حداثته ، وسيراعى فى تنظيم أدوارها ما وضعه ڤاجنر نفسه فيما بعد . وقد استدعى بهذه المناسبة عدة من أكابر الفنانين الأجانب الذين اشتهروا لتمثيل أوبرات ڤاجنر إلى لايبزج للإشتراك فى هذا الموسم ، وسيعاد تمثيل هذه القطع الشهيرة وعددها ثلاث عشرة من ٢٠ أبريل إلى ١٩ يولية القادم ، وقد اتخذت استعدادات فنية وموسيقية عظيمة لجعل موسم ڤاجنر من أعظم المواسم الفنية العالمية ، واختيرت مدينة لايبزج لأنها مسقط رأس الموسيقى العظيم ، وفيها بزغ مجده الأول

مصير اللغة الانجليزية

أذاع ولز محاضرة من لندن عن اللغة الانجليزية فى ديسمبر الماضى تناول فيها جملة تنبؤات طريفة عن مستقبل هذه اللغة ، وقد وازن ولز بين الانجليزية واللاتينية ، وبينها وبين اللغات السامية فطمأن سامعيه إلى استحالة أن يكون مصير الانجليزية كمصير هذه اللغات ؛ فالظروف التى ساعدت على تمزيق اللاتينية مثلا إلى فرنسية وإيطالية وقشتالية وقطلونية ... الخ قد زالت فى العصر الحديث ، أو أن الاختراعات ، وأهمها البخار والكهرباء والطباعة والراديو ، قد جنبت اللغات عامة والانجليزية خاصة شر المنقلب الذى انتهى إليه حال اللغة اللاتينية

الانجليزية لغة عالمية

وقد تنبأ ولز أن الانجليزية ستكون لغة عالمية فى العاجل القريب ، لأن الثلثمائة مليون الذين يتكلمونها فى مختلف أنحاء العالم قد اختاروها أداة للتعبير عن خلجاتهم مختارين غير مجبورين ، وذلك لما آنسوا فيها من السهولة واليسر والطواعية ... ولكن ولز يبدى تألمه من بطء انتشار الانجليزية فى غير الامبراطورية البريطانية من سائر الدول ، حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية التى تنازع الانجليزية فيها منازعة قوية لغات شتى ، أهمها الفرنسية والاسبانية والألمانية